سلسلة
عصور
مصرية

الدولة الطولونية والإخشيدية في مصر



تقديم: د. قاسم عبده قاسم

تأليف: جيهان ممدوح مأمون



السلسلة: عصور مصرية

العنوان: الدولة الطولونية والإخشيدية في مصر

تقديم: د. قاسم عبده قاسم

تأليف: جيهان ممدوح مأمون

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم



الترقيم الدولي: 6 - 4119 - 14 - 977 رقم الإيداع: 2007/19318 الطبعة 1: فبراير 2009

الإدارة العامة: 21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفون: 33466434 - 02 33472864
فاكس: 02 33462576

المركز الرئيسي: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - 6 أكتوبر
تليفون: 38330287 - 02 38330289
فاكس: 02 38330296

مركز التوزيع: 18 شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
تليفون: 25909827 - 02 25908895
فاكس: 02 25903395

فرع الإسكندرية: 408 طريق الحرية - رشدي
تليفون: 03 5462090

فرع المنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
تليفون: 050 2221866

خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com E-mail: publishing@nahdetmisr.com - customerservice@nahdetmisr.com

تقديم

منذ دخل الإسلام مصر ودخلت اللغة العربية إليها في صحبته، أخذت مصر تبحث عن دورها الطبيعي في إثراء الحضارة الإنسانية، وفي أثناء القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كانت قد تشكلت في مصر مدرسة ثقافية متمايزة في إطار الحضارة العربية الإسلامية. ومن ناحية أخرى كانت مصر، بمقوماتها الاقتصادية والبشرية والسياسية، مرشحة لقيادة الأمة نفسها. وقد كان قيام الدولة الطولونية؛ ثم قيام الدولة الإخشيدية، اللتين لم تعمر كل منهما أكثر من أربعين سنة، تعبيرًا عمليًّا عن هذه الحقيقة. بدليل أن نهاية الدولة الإخشيدية كانت نفسها بداية الدولة الفاطمية: الخلافة الشيعية المنافسة للخلافة السنية العباسية في بغداد.

يتحدث هذا الكتاب، في سلاسة وبساطة عن الظروف السياسية التي قامت فيها كل من الدولتين: من هو المؤسس؟ وكيف سارت أمور دولته، ومن هم خلفاؤه؟ وكيف كانت سيرة كل منهم؟ ثم يتحدث عن العاصمة «القطائع» الطولونية، والعسكر الإخشيدية. وعن مظاهر الحياة الاجتماعية والمنشآت، وبعض القصص القصيرة التي تضفي على الموضوع التاريخي حيوية نفتقدها في كتب التاريخ التقليدية الجامدة، كما أن الصور التي تزين هذا الكتاب زادت من البهاء والرونق الذي حملته المادة العلمية المبسطة التي قدمتها المؤلفة.

لن أكرر، بطبيعة الحال، ما كتبته المؤلفة في سطور هذا الكتاب، ولكني أشير فقط إلى بعض ما تحويه صفحات عن أحمد بن طولون، وعن الصفات والأخلاق التي تحلى بها وكتبت عنها المصادر التاريخية، وعن عاصمته التي لم يبق منها سوى ذلك المسجد الرائع الذي ينسب إليه، وعن قصة الكنز الذي عُثر عليه بالمصادفة لينفق منه على مسجده وحرصه على ألا تؤثر فيه مياه الفيضان أو نيران الحرائق. وعن علاقة مصر في ذلك الزمان بالخلافة في بغداد، وبالقوى السياسية في بلاد الشام، وعن أسطولها القوي فوق صفحة البحر المتوسط.. وعن الاحتفالات والعادات والتقاليد.

ويتحدث الكتاب أيضًا عن الدولة الإخشيدية بالطريقة نفسها، وما تنطوي عليه من تشويق لا يخل بالحقائق العلمية الموثقة من المصادر التاريخية الرئيسية؛ ذلك أن المؤلفة تتحدث عن «قطر الندى» ابنة خمارويه وزواجها الأسطوري من الخليفة العباسي بشكل يكشف ما كانت عليه ثروة مصر الكبيرة في ذلك الزمان، كما تتحدث عن حكم «كافور الإخشيدي» عندما كان خلفاء الإخشيد على درجة كبيرة من الضعف والهوان، وكيف أدى ذلك إلى سقوط الدولة في نهاية الأمر.

ولكن الحياة الاجتماعية والثقافية في مصر ذلك الزمان كانت تواصل تقدمها بعيدًا عن تقلبات السياسة وشرور الحرب، وزادت شخصية مصر العربية الإسلامية رسوخًا مع مرور السنين. وهذا ما كشفه قلم المؤلفة في بساطة وسهولة زادت من بهجتها تلك الصور للآثار الإسلامية الباقية في مصر من ذلك الزمان.

إن الحديث عن دولتين مارستا قدرًا كبيرًا من الاستقلال الذاتي على مدى فترتين منفصلتين يشير إلى أن مصر كانت، ومازال، مؤهلة لقيادة المنطقة العربية، أو منطقة شرق البحر المتوسط على الأقل في وجود القائد المناسب الذي يتمتع بالكفاءة والنزاهة والعدل؛ وهو ما توفر لكل من «أحمد بن طولون» و«محمد بن طغج الإخشيد». وهذا الكتاب، من ناحية أخرى، يكشف غموض فترة من تاريخ مصر لا يعرفها سوى أهل التخصص. والحقيقة أن المؤلفة، ومجموعة شركات نهضة مصر، تستحق التهنئة على هذه السلسلة المدهشة في تاريخ العصور المصرية بعد الإسلام.

والله الموفق والمستعان

د. قاسم عبده قاسم

الجيزة – يناير 2009


المحتويات



الدولة الطولونية (868م – 905م)

طولون

تنتسب الدولة الطولونية إلى مؤسسها (أحمد بن طولون)، كان والده (طولون) من الأتراك المقيمين ببلاد ما وراء النهر (تركستان) من أسرة تقيم في بخارى، ثم قامت الحرب بين أهالي تلك المدينة والعباسيين ووقع (طولون) في الأسر وبِيع للخليفة العباسي المأمون (868م) الذي ضمه إلى حاشيته.[1] وترقَّى طولون حتى أصبح (أمير السِّتر) (أي رئيس الحرس الخاص بالخليفة).

أحمد بن طولون

هو الأمير (أبو العباس أحمد بن طولون) ومعنى اسمه البدر الكامل[2] ولدببغداد (835م) وأمضى شبابه في مدينه سامرَّاء. كان طويل القامة حسن الشكل وقد تلقى قسطًا وافرًا من التعليم الديني والعسكري وكان كريمًا عادلاً متدينًا محبًّا للعلم والعلماء ميالاً للإصلاح، عرف عنه الجِد وبُعْده عن كل أنواع اللهو. كان أحمد في العشرين من عمره عندما تُوفي أبوه طولون فأسند إليه الخليفة العباسي (المتوكل) نفس المنصب الذي كان يشغله والده.

جامع أحمد بن طولون، وقد بناه على نمط العمارة في سامراء

ولايته على مصر

وفى عهد الخليفة العباسي (المعتز بالله) (868م) تولى مصر القائد التركي(باكباك) ففضل البقاء في عاصمة الخلافة العباسية بغداد واختار(أحمد بن طولون) لما عُرِف به من شجاعة وكفاءة ليحكم مصر نيابة عنه. وبعد مقتل (باكباك) تولَّى حكم مصر قائدٌ يسمى (يارجوخ) وكان (أحمد بن طولون) متزوجًا من ابنته فولاه أيضًا الولاية على مصر بدلا عنه. وبعد وفاة (يارجوخ) (868م) تولى (أحمد بن طولون) الإمارة رسميًّا على مصر[3].

(1) بدائع الزهور، ص45.

(2) النجوم الزاهرة، ص143.

(3) موسوعة التاريخ الإسلامي ج5 ص89.

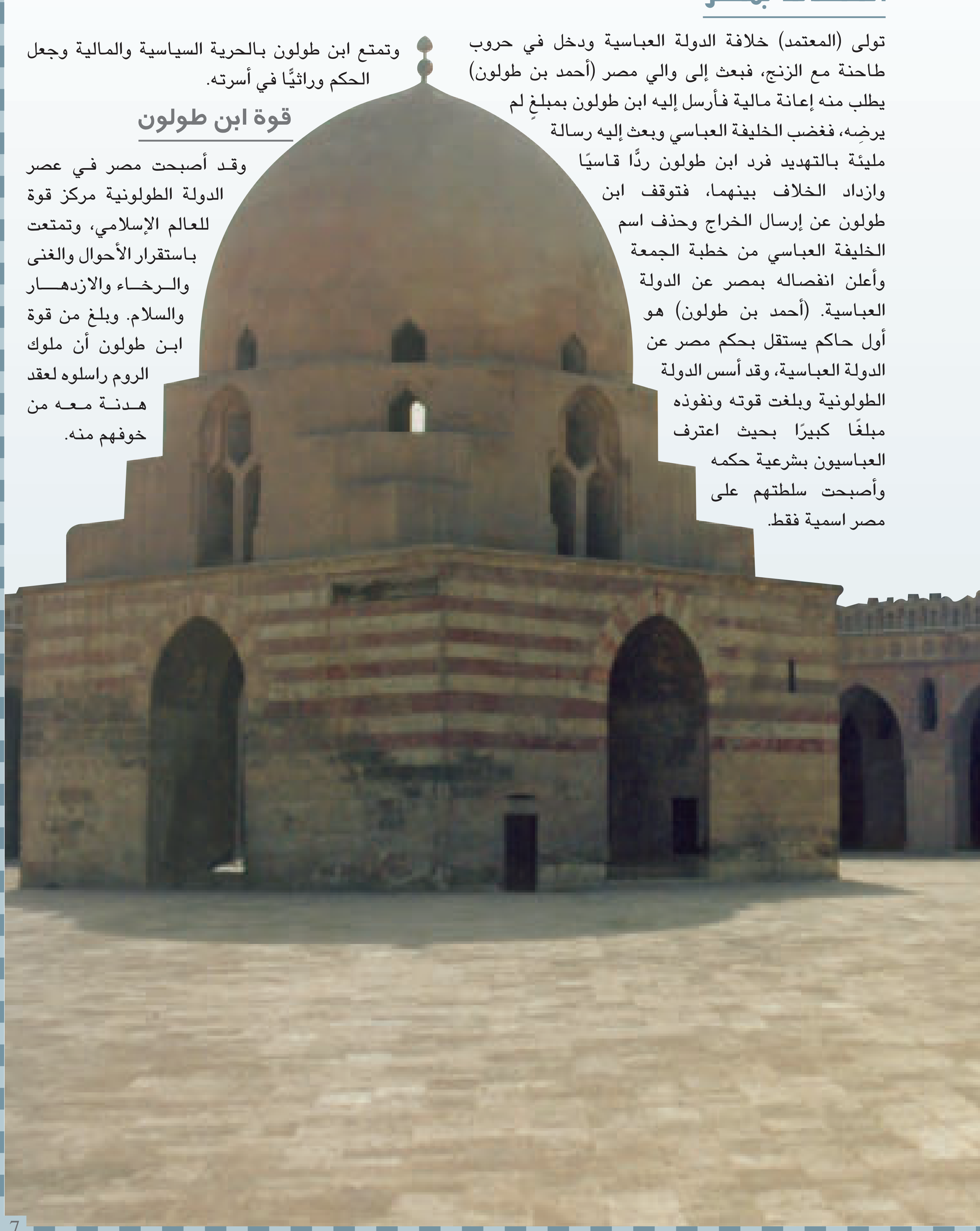
انفصاله بمصر

تولى (المعتمد) خلافة الدولة العباسية ودخل في حروب طاحنة مع الزنج، فبعث إلى والي مصر (أحمد بن طولون) يطلب منه إعانة مالية فأرسل إليه ابن طولون بمبلغٍ لم يرضِه، فغضب الخليفة العباسي وبعث إليه رسالة مليئة بالتهديد فرد ابن طولون ردًّا قاسيًا وازداد الخلاف بينهما، فتوقف ابن طولون عن إرسال الخراج وحذف اسم الخليفة العباسي من خطبة الجمعة وأعلن انفصاله بمصر عن الدولة العباسية. (أحمد بن طولون) هو أول حاكم يستقل بحكم مصر عن الدولة العباسية، وقد أسس الدولة الطولونية وبلغت قوته ونفوذه مبلغًا كبيرًا بحيث اعترف العباسيون بشرعية حكمه وأصبحت سلطتهم على مصر اسمية فقط.

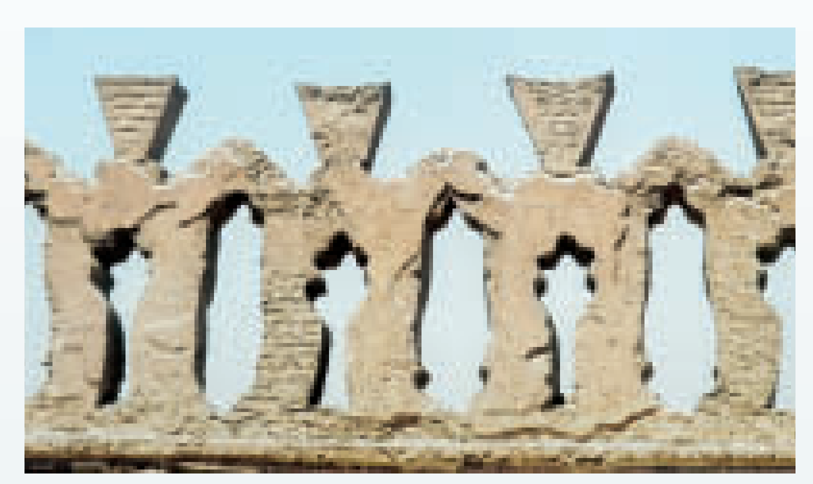
وتمتع ابن طولون بالحرية السياسية والمالية وجعل الحكم وراثيًّا في أسرته.

قوة ابن طولون

وقد أصبحت مصر في عصر الدولة الطولونية مركز قوة للعالم الإسلامي، وتمتعت باستقرار الأحوال والغنى والرخاء والازدهار والسلام. وبلغ من قوة ابن طولون أن ملوك الروم راسلوه لعقد هدنة معه من خوفهم منه.



ضم الشام



هزم البيزنطيون والي الشام (عبد الله بن رشيد) وأسروه. استعان الخليفة العباسي المعتمد بـ(أحمد بن طولون) وطلب منه أن يحارب البيزنطيين فخرج لملاقاتهم وهزمهم واستولى على دمشق وضمها لحكمه بعد ضم مصر بخمس سنوات. وقد وافقت الدولة العباسية على استقلال (أحمد بن طولون) بحكم مصر والثغور الشامية لقوته وقدرته الفائقة على الدفاع عن الدولة العباسية ضد هجمات البيزنطيين. وعندما فتح ابن طولون الشام عزل (أحمد بن المدبر) عن خراج الشام وتولاه بنفسه.

الدولة العباسية

تنتسب الدولة العباسية إلى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم. تمت مبايعة (أبي العباس) خليفة للمسلمين (750م) واتخذ العباسيون بغداد عاصمة لحكمهم وحكموا العالم الإسلامي (524) عامًا.

لجوء المعتمد إلى ابن طولون

كان للخليفة العباسي (المعتمد) أخ يدعى (الموفق طلحة) وكان قويًّا مستبدًا وقد أخذ السلطة كلها في يده وجعل أخاه المعتمد خليفة بالاسم فقط. ويروى أن الخليفة المعتمد احتاج ذات يوم إلى ثلاثمائة دينار، فلم يستطع الحصول عليها فاشتد به الضيق ولجأ إلى (أحمد بن طولون) ليقيم عنده في مصر. فعلم (الموفق طلحة) فوضع المعتمد في دار يحرسها خمسمائة رجل، ومنع دخول الناس إليه.

الصعوبات التي واجهت ابن طولون في مصر

واجهت (أحمد بن طولون) في مصر، في أول حكمه ثلاث مشاكل، لكنَّه نجح في التغلب عليها:

- منافسة عامل الخراج (أحمد بن المدبر).
- منافسة صاحب البريد (شقير).
- ثورة ابنهِ (العباس).

أحمد بن المدبر

كانت شئون الخراج أي تحصيل الضرائب في أول حكم (أحمد بن طولون) على مصر في يد رجل يدعى (أحمد بن المدبر) وكان قويًّا ذا نفوذ وثراء، وقد اتخذ مائة غلام (عبد) لحراسته وكانوا يتصفون بطول القامة والضخامة والقوة البدنية الشديدة.
وكان هؤلاء الحراس يقفون حول ابن المدبر في مجلسه وكل منهم يحمل في يده عصًا خشبية غليظة أو قطعة طويلة من المعدن، تستخدم للضرب ليروعوا الناس، فكان الناس يخشون ابن المدبر لبطش حراسه. بعد تولي (أحمد بن طولون) ولاية مصر بعث إليه ابن المدبر بمبلغ 10,000 دينار هدية لكسب وده ولكنه رفض استلامها وطلب من ابن المدبر أن يرسل إليه غلمانه؛ لأن الجيش بحاجة إليهم فبعثهم وهو في غاية الغضب لأن (أحمد بن طولون) جرده من قوته. وبعد ذلك طلب الخليفة العباسي (المعتمد) من (أحمد بن طولون) مبلغًا كبيرًا من المال، فأجابه، كيف يعطيه ما يريد من أموال والخراج في يد ابن المدبر. فعزل الخليفة (أحمد بن المدبر) عن خراج مصر وعينه على خراج الشام.

ظلم ابن المدبر

لم يهتم ابن المدبر بمصلحة مصر أو المصريين، بل كان يجمع الأموال الطائلة لنفسه وتحكى عنه مظالم عجيبة فقد فرض على الناس ضريبة على النخل والأشجار التي يزرعونها في بيوتهم وعلى العشب الأخضر الذي تأكله البهائم وعلى صيد الأسماك واحتكر بيع الملح. وقد ضاعف الخراج والجزية على الناس وساءت الأحوال في أيامه.[1]

شقير

كان شقير عاملاً للبريد وكان جاسوسًا للعباسيين يبعث إليهم سرًّا بأخبار ما يحدث في مصر وكان يراقب تصرفات (أحمد بن طولون). كما كان متآمرا مع ابن المدبر، ولكن ابن طولون نجح في عزله وأخضع البريد لسلطته.[2]

ثورة العباس ضد أبيه

كانت ثورة العباس من أصعب الثورات لكون العباس هو ابن (أحمد بن طولون) الكبير. وقد استخلفه ابن طولون على مصر وذهب إلى الشام، وخرج الابن العاق على أبيه وأخذ الأموال الموجودة بخزانة الدولة، وهي ألف ألف دينار وسافر إلى برقة. بعث (أحمد بن طولون) بجيوش إلى برقة فقاتلوا العباس وهزموه وجاءوا به أسيرًا إلى أبيه الذي حبسه وأمر بضربه وانتهت الفتنة.

الأتراك

كانت أم (أحمد بن طولون) تركية فاعتمد على العنصر التركي واتخذ من الأتراك حرسًا له.

زوجات ابن طولون

تزوج (أحمد بن طولون) من ابنة عمه (خاتون) فولدت له العباس، ثم تزوج من جارية اسمها (مياس) فولدت له ابنه (خمارويه).[3]

شخصية أحمد بن طولون

كان (أحمد بن طولون) من الشخصيات العظيمة التي حكمت مصر فكان سياسيًّا ماهرًا ومحاربًا عظيمًا وإداريًّا كفئًا.

إحسان أحمد بن طولون

كان (أحمد بن طولون) يخصص يومين في الأسبوع للنظر في مظالم الناس. وكان محسنًا ينفق على الفقراء ويوزع عليهم الأطعمة ويصلي على كل من يموت في البلد غنيًّا أو فقيرًا ويحضر دفنهم بنفسه. وكان يرسل كل عام لفقراء بغداد (100,000) دينار وكسوة الشتاء والصيف طوال مدة ولايته على مصر.[4]



(1) موسوعة مصر الإسلامية ج5 ص90.

(2) تاريخ مصر الإسلامية ص111.

(3) النجوم الزاهرة ص144.

(4) بدائع الزهور ص47.

شجاعة أحمد بن طولون

وهو في طريق العودة من مدينة (طرطوس) في الشام هجم اللصوص على قافلته لسرقة ما فيها لأن الطرق لم تكن آمنة في هذا الوقت. تغلب (أحمد بن طولون) على اللصوص، فتركوا كل ما سرقوه، ولما عادوا إلى بغداد قص الخادم على الخليفة العباسي المستعين خبر شجاعة ابن طولون وتخليصه القافلة، فبعث إليه الخليفة ألف دينار مع الخادم يهنئه على شجاعته.

منشآت أحمد بن طولون

القطائع

عندما وصل (أحمد بن طولون) إلى مصر أقام هو وجيوشه وحاشيته في بيت الإمارة في مدينة العسكر. وقد استكثر ابن طولون من الجند والخدم حتى ضاق عليه بيت الإمارة الذي كان يقيم فيه فبنى مدينة جديدة تحت القلعة وأطلق عليها (القطائع) لتصبح عاصمة للدولة الطولونية (870م). يرجع اسم القطائع إلى نظام تخطيطها وهو التخطيط المتقاطع وقد أمر ابن طولون أصحابه أن يبنوا لأنفسهم بيوتًا حول قصره وميدانه، وكانت القطائع مقسمة بين كبار رجال الدولة والعلماء وأرباب الحرف والتجار وسميت كل قطيعة باسم من يسكنها:

- قطيعة (حارة) السودان.
- قطيعة (حارة) الروم.
- قطيعة (حارة) النوبة[1]

وأقيمت بها المساجد والحمامات والدكاكين والشوارع والطواحين والأفران والأسواق.و القطائع هي ثانية العواصم الإسلامية في مصر بعد الفسطاط، وقد زالت هذه المدينة واختفت على يد العباسيين.

قناطر المياه

أمر (أحمد بن طولون) بحفر بئر في الجنوب الشرقى من القطائع (البساتين اليوم) وشيد عليها قناطر يرفع إليها الماء من النيل عن طريق ساقية تصل للقطائع.

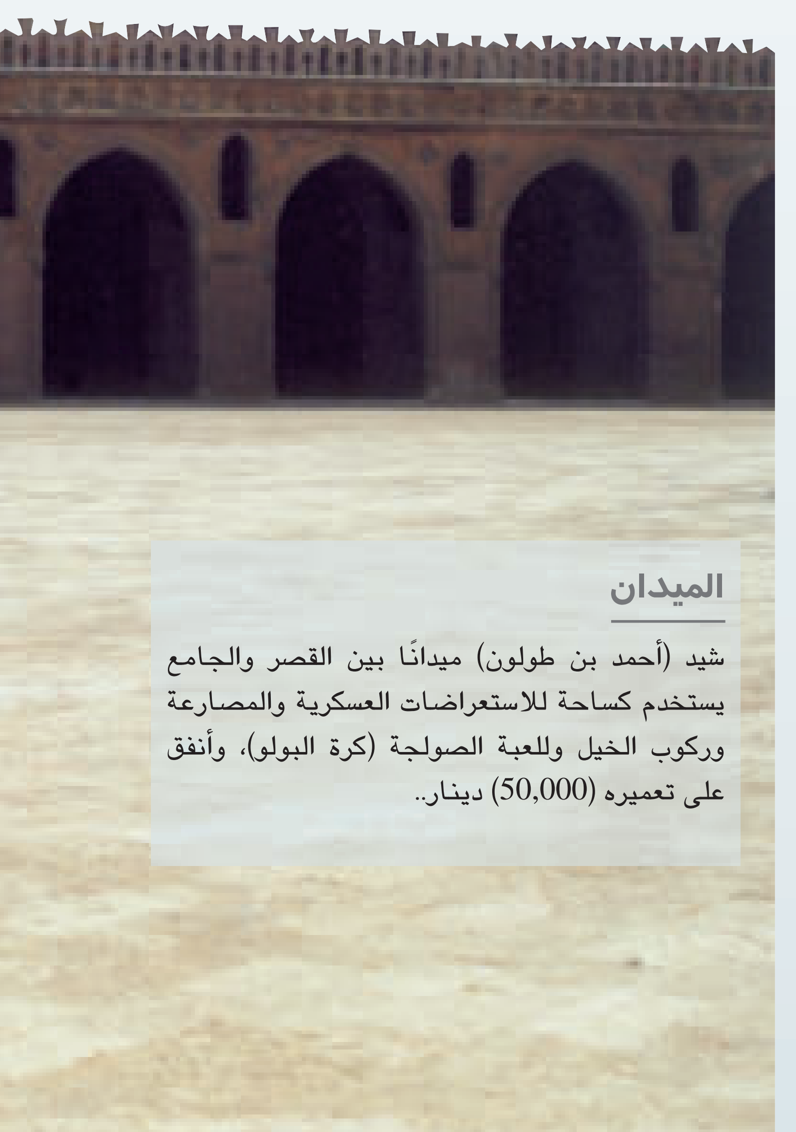
القصر

من أهم المنشآت التي أقيمت بداخل القطائع قصر الأمير (أحمد بن طولون) بالقرب من جبل المقطم.كان القصر يشرف على الميدان الذي تقام فيه الاستعراضات، وكان ابن طولون يشاهدها من فوق منصة مقامة له، وكان القصر يطل من الناحية الأخرى على نهر النيل. يربط بين القصر والميدان والجامع طريق اسمه (الشارع الأعظم) وقد سمي القصر والميدان بالميدان، وكان للقصر عدة أبواب لكل باب اسم:

باب الميدان الكبير: لدخول الجيوش والخدم.

باب الخاصة: لدخول الحاشية.

باب الجبل: بجوار جبل المقطم.



الميدان

شيد (أحمد بن طولون) ميدانًا بين القصر والجامع يستخدم كساحة للاستعراضات العسكرية والمصارعة وركوب الخيل وللعبة الصولجة (كرة البولو)، وأنفق على تعميره (50,000) دينار..

---

(1) النجوم الزاهرة ص145.

باب الحرم: لدخول الحريم.
باب الدرمون: يجلس أمامه حاجب يسمى (درمون) فسمي الباب باسمه.
دعناج: يجلس أمامه حاجب اسمه (دعناج).
باب الساج: مصنوع من خشب الساج.
باب الصلاة: يخرج منه الخليفة (أحمد بن طولون) للصلاة وهو يؤدي إلى جامع أحمد بن طولون.[1]
وتفتح كل الأبواب يوم العيد ويوم عرض الجيش ويوم الصدقة.

مطابخ ابن طولون

كان مطبخ القصر يصرف كل يوم (1000) دينار على الطعام والحلوى والفاكهة والسكر والشمع.[2] وقد خصص ابن طولون مطابخ أخرى للفقراء، كان يُذبح فيها كل يوم بقر وغنم، يتم توزيعها على الناس في قدور من الفخار. وأحيانًا كان يتم وضع الطعام على مائدة كبيرة، ويخرج منادٍ ينادي في الناس: (من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر) ويسمى هذا اليوم (يوم الصدقة) وتفتح فيه كل أبواب القصر ويجلس ابن طولون بأعلى القصر فيشاهدهم وهم يأكلون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته.[3]

صحن جامع أحمد بن طولون، ويلاحظ الفتحات التي ميزت العمارة في هذا الوقت

قصة

خرج الأمير ابن طولون يومًا للنزهة بجوار الأهرام، فغاصت قوائم فرسه فأمر بكشف ذلك المكان فوجد فيه دنانير يوسفية تبلغ مليون دينار فنقلها إلى خزائنه على ظهور الجمال وبنى جامعه بهذه الدنانير.[4]

(1) النجوم الزاهرة ص145.
(2) بدائع الزهور ص47.
(3) تاريخ مصر الإسلامية ص8.
(4) بدائع الزهور ص 46.

جبل يشكر

جبل يشكر عبارة عن هضبة في منطقة قريبة من المقطم وليس جبلاً، وقد بنيت عليه مدينة القطائع، وسميت بهضبة يشكر نسبة إلى أول قبيلة عربية سكنت بها عند الفتح العربي الإسلامي لمصر، وهي (يشكر بن لخم).

جامع أحمد بن طولون

وجامع (أحمد بن طولون) هو أقدم بناء إسلامي باقٍ كما هو حتى اليوم. بدأ (أحمد بن طولون) في بناء الجامع (876م)، وهو يعد من أكبر جوامع العالم الإسلامي، إذ تبلغ مساحته (6,5) فدان، وقد تم بناؤه في سنتين على طراز مساجد مدينة سامراء. وعندما عزم (أحمد بن طولون) علي تشييد هذا الجامع أشار عليه الناس أن يبنيه على (جبل يشكر) لأنه مكان مشهور بإجابة الدعاء. وقد أنفق ابن طولون على بنائه (120,000) دينار[1] وكان بجوار إقامة الصلوات فيه يستخدم كمدرسة للعلوم الدينية، يدرس فيه كبار العلماء. وسمي بالجامع الجديد ليتم تمييزه عن جامع (عمرو بن العاص) الذي كان يطلق عليه الجامع العتيق[2].وهذا الجامع هو كل ما تبقى في مصر من آثار الدولة الطولونية، وتم ترميمه عدة مرات على مر العصور.

وصف الجامع

هو مربع الشكل وبه صحن مكشوف وحوله أربعة إيوانات وله منبر خشبي من العصر المملوكي. والجامع مرفوع على دعامات تحمل العقود وهي الأولى من نوعها في مصر، ولا يوجد به أعمدة إلا في رواق القبلة. ويوجد بالجامع (128) شباكًا من الجص المفرغ تحيط به من الجهات الأربع، ويلف حوله إزار خشبي، نقش عليه بالخط الكوفي سورة البقرة وآل عمران. وكان بالجامع صيدلية للأدوية وطبيب لمعالجة المرضى يوم الجمعة.[3] وكانت به نافورة تتوسط الصحن أعدت في الأصل ليشرب منها الناس، ولكنها احترقت وبني مكانها في العصر المملوكي الميضأة الموجودة اليوم. يوجد بالجامع اليوم ستة محاريب أضيفَ معظمها إليه في عصور لاحقة. يحيط بالجامع من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية أرض فضاء محاطة بسور من الجدران العالية تعزل الجامع عن العالم الخارجي. وهو من الجوامع المعلقة؛ إذ يتم الوصول لأبوابه بسلالم ويوجد بالرواق الشرقي جزء من لوحة رخامية مكتوب عليها اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء، ولم يعرف بالتحديد اسم المهندس الذي بناه.

(1) النجوم الزاهرة ص144.

(2) تاريخ مصر الإسلامية ص82.

(3) القاهرة مدينة ألف ليلة ص44.

مواصفات ابن طولون للجامع

طلب (أحمد بن طولون) من المهندس الذي يشيد الجامع أن يبني له مبنى لا تحرقه النيران ولا تهدمه مياه الفيضان، قال: «أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي»[1]. فبنى له المهندس جامعًا من الآجر الأحمر الذي يقاوم النيران ورفعه على دعامات مصنوعة أيضًا من الآجر، ولم يصنع له أعمدة رخامية لكونها قابلة للاحتراق. وطليت جميع جدران الجامع بالجص (الجبس) وقد بناه على هضبة مرتفعة بعيدة عن مجرى النيل، حتى لا يتأثر بماء الفيضان. وقد تابع ابن طولون بنفسه عملية التخطيط والإنشاء، كما عين العلماء والفقهاء وأعطاهم رواتب وصدقات ويُمنح لهم يوميًّا الطعام والخبز والحلوى والفاكهة.

مئذنــة الجامــع

أجمل ما في هذا الجامع مئذنته وهي أقدم مئذنة في القاهرة، وهي الوحيدة من نوعها، فليست متصلة بمبنى الجامع، بل تتصل به عن طريق جسر. وشكلها مخروطي (حلزوني) وتتكون من قاعدة مربعة يعلوها منطقة أسطوانية، ولها سلم دائري وفي قمتها مبخرة، وهي تشبه إلى حد كبير مئذنة جامع منارة سامراء ببغداد. ومن المعتقد أن (أحمد بن طولون) تأثر بمئذنة جامع سامراء؛ لأنه أقام بهذه المدينة في شبابه قبل قدومه إلى مصر.

افتتاح الجامع

لما انتهى بناء الجامع تم فرشه بحصير سامان وسجاجيد من البهنسة، وكسيت جدرانه بالفسيفساء، وبلطت أرضيته بالمرمر، وعلقت فيه القناديل. وقد كتب القرآن كله بحروف مذهبة فوق إفريز يدور أعلى الجامع، وطلي المحراب بروح الورد والصندل والزعفران[3] وأطلق البخور، وحملت إليه صناديق المصاحف وصلى فيه القاضي(بكار ابن قتيبة) و(أحمد بن طولون) أول صلاة جمعة وجلس في دار الإمارة. وتصدق ابن طولون في هذا اليوم بصدقات عظيمة وقام بتوزيع طعام كثير على الفقراء والمساكين وأعطى المهندس الَذي بنى الجامع عشرة آلاف دينار.

قصة

وتروى قصة أن (أحمد بن طولون) كان رجلاً جادًّا لا يحب اللهو وفي يوم من الأيام رآه بعض رجال دولته يلف ورقة حول إصبعة فدُهشوا لأنه لا يضيع وقته في هذا العبث، فقال لهم إنه يريد مئذنة الجامع الذي يبنيه على شكل مخروط، أي مثل شكل الورقة الملتفة حول إصبعه.[2]



مئذنة جامع
أحمد بن طولون

(1) القاهرة مدينة ألف ليلة ص42.

(2) القاهرة مدينة ألف ليلة ص34

(3) القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة ص35.

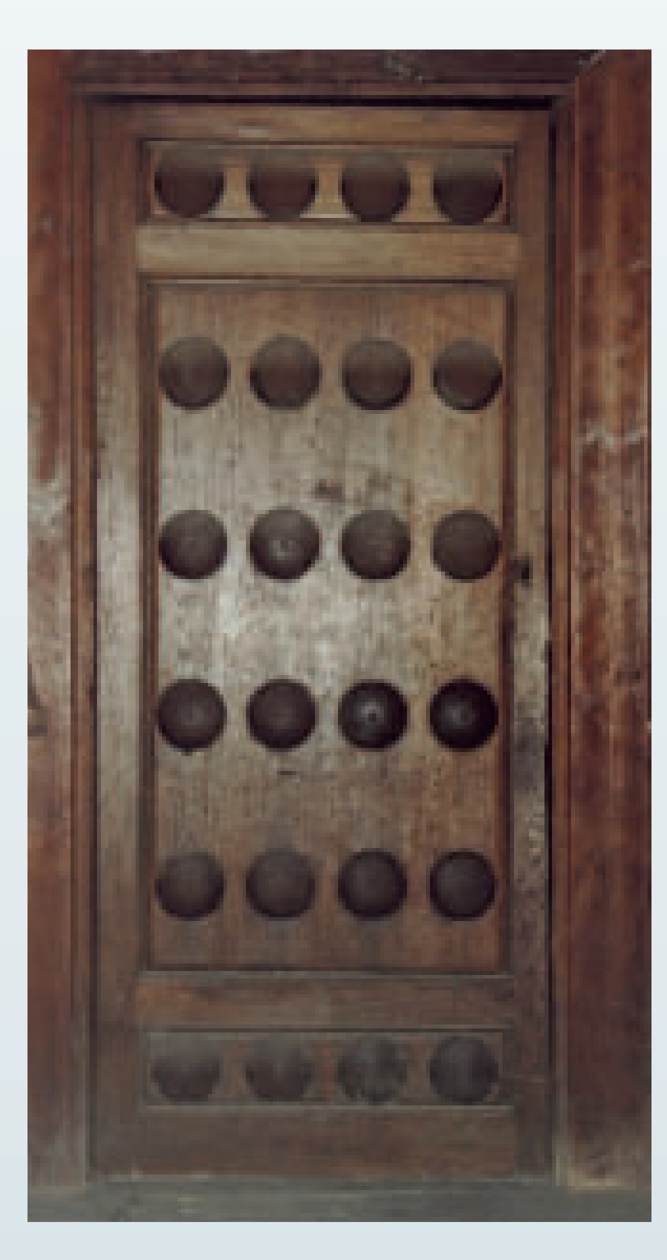
رحمة ابن طولون

تروى قصة، مفادها أن (أحمد بن طولون) رأى يومًا العمال وهم يبنون جامعه في شهر رمضان وقت صلاة العشاء، فقال لموظفيه: كيف يشتري هؤلاء العمال الضعفاء الإفطار لأسرهم وهم يعملون حتى وقت متأخر، وأمر موظفيه بأن يصرفوهم عند صلاة العصر. وقد فرح العمال وهللوا بالدعاء لابن طولون وبعد انتهاء شهر رمضان أمر باستمرار انتهاء العمل عند صلاة العصر رأفة بالعمال.

دار الإمارة

أقام ابن طولون دارًا للإمارة جنوبي الجامع لتحل محل دار الإمارة التي كانت قائمة في العسكر. وكانت هذه الدار تتصل بالجامع عن طريق باب يقع بجانب المنبر، وكان ابن طولون يجلس بها إذا ذهب إلى صلاة الجمعة ليجدد وضوءه، ولم يتبق منها اليوم إلا حجرة صغيرة بها بقايا السقف الخشبي الذي كان يغطيها.

محراب النمل



قيل إن النمل التف حول محراب هذا الجامع لما وضعوا أساسه، فبنوا على الخط الذي وضعه النمل محرابًا وسمي (محراب النمل).[1]

مسجد التنور

بناه (أحمد بن طولون) (873م) على جبل يشبه مكان جبل الجيوشي اليوم إلا أنه زال تمامًا.[2]

المارستان

بنى (أحمد بن طولون) مارستانًا أي مستشفى (873م) لمعالجة المرضى من جميع فئات الشعب بين الفسطاط والقطائع، وأنفق على بنائه (60,000) دينار. واشترط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك لإعطاء الفرصة لعامة الناس غير القادرين على دفع نفقات العلاج للاستفادة منه. وعند دخول المريض إلى المارستان كان يعطى ثيابًا جديدة ويقوم الأطباء بفحصه ويعطونه الدواء المناسب بالمجان وكان ملحقًا به حمَّامٌ للرجال وآخر للنساء.

علامة الشفاء

تكون علامة الشفاء وإذن الخروج من المارستان أن يأكل المريض رغيفًا ودجاجة.[3]

(1) بدائع الزهور ص46.

(2) تاريخ مصر الإسلامية ص209

(3) القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة ص38.

قصة

تروى قصة أنه لما انتهى ابن طولون من بناء الجامع أخذ الناس يذكرون ما فيه من العيوب، فقال رجل إن محرابه صغير وقال الآخر: لا يوجد به أعمدة وقال الثالث: ليست له ميضأة. فجمع (أحمد بن طولون) الناس وقال لهم: «أما المحراب فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم (فى المنام) وقد خطه لي، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذي خطه، وأما العمد فإني بنيت هذا الجامع من مال حلال، وهو الكنز، وما كنت لأشوبه بغيره وهذه العمد إما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها، وأما الميضأه فإني نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها، وها أنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها.»

مرض أحمد بن طولون

كان (أحمد بن طولون) محبوبًا جدًّا من الناس، ولما مرض حزن الناس حزنًا شديدًا وأخذوا يدعون الله له بالشفاء. وكان ابن طولون يقول في مرضه: «رب ارحم من جهل مقدار نفسه، وقوي بطره وغره حلمه.. يا أرحم الراحمين».

وفاة ابن طولون

مرض (أحمد بن طولون) وتوفي (884م) بعد أن حكم مصر ستة عشر عامًا ودفن في أسفل جبل المقطم، وحزن المصريون حزنًا شديدًا على موته. وقد ترك ثروة طائلة عبارة عن عشرة آلاف ألف ألف دينار ذهب وترك (700) مملوك و(7000) جمل و(10,000) فرس و(6000) رأس من البغال والحمير، و(24,000) عبد وألف مركب. كما ترك الكثير من الجواهر والياقوت وما لا يحصى عدده من التحف الثمينة.(1)

خمارويه

تولى خمارويه الحكم (883م) بعد موت أبيه (أحمد بن طولون) وسنه نحو عشرين عامًا وكان طويل القامة، وقد بالغ في الترف والإسراف إلى حد الجنون، واستكثر من شراء المماليك والجياد ومن صيد السباع.

المختارة

اتخذ خمارويه حرسًا عظيمًا بأعداد هائلة لحراسته وكانوا جنودًا يمتازون بالقوة البدنية الشديدة وألبسهم دروعًا مصنوعة من الجلد والحرير والديباج وعمائم سوداء وقلدهم السيوف الفاخرة، وقد أطلق عليهم (المختارة). وكان المختارة يتقدمون الجيوش عند الحروب ويحاربون بشجاعة فائقة. وقد لقب خمارويه بـ(أبي الجيوش) لاهتمامه الشديد بالجنود والجيش.(2)



محراب جامع ابن طولون ويظهر عليه الزخارف التي ميزت العمارة في سامراء


(1) تاريخ مصر الإسلامية ص86.

(2) النجوم الزاهرة ص150.

علاقة خمارويه بالخليفة العباسى

استمر الخلاف بين خمارويه والخليفة العباسي وقد هزم خمارويه قوات أخي الخليفة العباسي (الموفق طلحة) في (معركة الطواحين) (887م). وبعد المعركة عقدا صلحًا اعترف فيه الخليفة العباسي بولاية خمارويه على مصر، ثم ضم الشام بعد ذلك. بعد وفاة الخليفة العباسي (المعتمد) تولى (المعتضد) وقد بعث إليه خمارويه بالهدايا ورغب في إقامة علاقة طيبة معه. واعترف الخليفة العباسي بولاية خمارويه وأبنائه على مصر لمدة ثلاثين عامًا على أن يدفع خراجًا يقدر بحوالي (300,000) دينار سنويًّا للخليفة العباسي. ولتقوية العلاقات عرض خمارويه أن تتزوج ابنته قطر الندى من (المكتفي) ابن الخليفة العباسي (المعتضد) فلما سمع الخليفة ذلك قال: بل أنا أتزوجها. ودفع لها مهرًا قدره مائة ألف درهم.

منشآت خمارويه

بستان خمارويه

بنى (خمارويه) بستانًا مكان الميدان، غرس فيه أشجارًا كثيرةً وجلب فيه الحيوانات، وبنى أبراجًا للطيور النادرة وأطلق الطواويس وبنى عرينًا للأسود. وقد كسا أجسام النخل بالنحاس المطلي ذهبًا، والذي يذهب بالأبصار، وجعل بين جسد النخلة والنحاس مواسير من الرصاص، يمر فيها الماء فيكون عيونًا تحت النخل ويذهب الماء إلى فسقيات في البستان. وكتب بنبات الريحان على الأرض كتابات بالغة الدقة والجمال. وقد طعموا له الأشجار المختلفة، فخلطوا بذور المشمش واللوز وأنتجوا ثمارًا جديدة، وكانت بالبستان سواقٍ تدور بالمياه العذبة، تسقي الزرع. وقد حفر خمارويه بحيرة وملأها بالزئبق.[1]





دار الذهب

بنى (خمارويه) بيتًا صغيرًا يستخدمه مجلسًا، سماه بيت الذهب وطلى جدرانه بالذهب واللازورد، ورسم بداخله صورته بالخشب البارز وصور فتياتٍ بالملابس الملونة وعلى رءوسهن تيجان من الذهب الخالص.[2] ويقال إنه كان لخمارويه جارية فاتنة رائعة الجمال اسمها (بوران) وكان يحبها حبًّا شديدًا وقد رسم صورتها على جدران بيت الذهب، ولكنها ماتت فحزن عليها زمنًا طويلاً. وكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا في هذا العصر.

---

(1) بدائع الزهور ص49.

(2) النجوم الزاهرة ص149.



بركة الزئبق

أمر(خمارويه) بحفر بركة، أي بحيرة صغيرة أمام دار الذهب، وملأها زئبقًا. ويقال إن خمارويه اشتكى إلى طبيبه من كثرة السهر وعدم النوم، فأشار عليه بالتدليك فلم يأتِهِ بالنتيجة المطلوبة فأشار عليه الطبيب بأن يحفر بركة من الزئبق. فأمر خمارويه ببناء بركة مربعة الشكل، طولها خمسون ذراعًا وعرضها خمسون ذراعًا، وملأها بالزئبق، ووضع فيها سريرًا ضخمًا مملوءًا بالهواء لينام ويتأرجح فوقه، وكان السرير مشدودًا بخيوط من حرير في أعمدة من فضة. وكانت أضواء الشمس والقمر والنجوم تتلألأ على سطح هذه البركة التي ليس لها مثيل، وقد أنفق خمارويه على إنشائها أموالاً طائلة. (1)

القبة

بنى خمارويه قبة يجلس بها، سماها الدكة وجعل لها ستائر تقيها البرد والحر، وكانت تشرف على البستان والنيل والصحراء.(2)

قطر الندى

زوَّج خمارويه ابنته أسماء التي تعرف (بقطر الندى) الخليفة العباسي (المعتضد) (894 م). كانت (قطر الندى) من أجمل نساء عصرها وأكثرهن ذكاءً وسحرًا وكان والدها (خمارويه) يحبها حبًّا شديدًا ويحيطها بكل أسباب الترف والعز.

جهاز قطر الندى

وقد تمت خطبة الأميرة المصرية إلى الخليفة العباسي وقدم لها مهرًا قدره ألف ألف دينار. وقد تكلف جهازها مليون دينار وكان جهازًا يضرب به الأمثال. كان جهازها يتكون من كل أنواع التحف والحلي وعدد (400) حزام مرصعة بالجواهر وبه ألف هون من الذهب الخالص لسحق العطور وعشرة صناديق مملوءة بالجواهر. وكانت به دكة (سرير) مكونة من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من ذهب مشبك في كل فتحة جوهرة معلقة.(3)

(1) بدائع الزهور ص50.

(2) النجوم الزاهرة ص149.

(3) النجوم الزاهرة ص150



سفر قطر الندى

وبعد إعداد الجهاز استعد (خمارويه) لإرسال ابنته إلى زوجها الخليفة، وخرجت (قطر الندى) من مصر في موكب عظيم، وبرفقتها عدد من الأمراء والخدم. وقد بنى لها والدها قصورًا فخمة على طول الطريق من مصر إلى بغداد لتستريح بها، فقد أراد خمارويه أن يجعل تلك الرحلة الطويلة الشاقة في الصحراء مثل النزهة، وأحاطها بمظاهر الراحة والترف. وقد وصلت (قطر الندى) إلى بغداد بعد ستة أشهر.

الزفاف

وزفت (قطر الندى) إلى الخليفة العباسي (المعتضد) وكان الزفاف أسطوريًّا، وأقيمت الحفلات العظيمة الباذخة والمآدب الحافلة بأنواع الطعام ليالي كثيرة. وكانت الأميرة تلبس فوق رأسها إكليلاً من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر وتلبس ثوبًا من أفخر أنواع الحرير وقد أحبها (المعتضد بالله) حبًّا جمًّا وسحره أدبها.[1] ولا يزال اسم (قطر الندى) يتردد في الأغاني الشعبية حتى اليوم.

وفاة قطر الندى

وقد توفيت (قطر الندى) بعد خمسة أعوام فقط من زواجها، ودفنت في بغداد، وحزن عليها زوجها حزنًا شديدًا حتى مات.

أغنية شعبية:

(يالحنة يالحنة يا قطر الندى)

هي من أشهر أغاني الأفراح التي لا تزال تتردد على ألسنة المصريين. والأغنية تشير إلى أشهر ليلة حناء لأشهر عروس مصرية في التاريخ. كل هذا الإسراف على زواج (قطر الندى) ترك الخزائن خاوية وساءت الأحوال المالية في الدولة.

---

(1) بدائع الزهور ص45.

قصة

تروى قصة أن (خمارويه) خرج للنزهة فلقيه أعرابي فأنشد أبياتا تقول:

إن السنان وهو السيف لو
حدث عنك في الهيجاء بالعجب
أفنيت مالك تعطيه وتبذله
يا أمة الفضة البيضاء والذهبِ

فأعطاه خمارويه خمسمائة درهم فقال الأعرابي «زدني فمثلك من يزيد» فطلب خمارويه من مماليكه أن يعطوه سيوفهم وكانت مطعمة بالذهب ومناطقهم أي أحزمتهم، فقال الأعرابى «ومن يحمل لي ذلك؟» فأعطاه بغلًا ومضى ولما رجع خمارويه إلى القصر أعطى المماليك سيوفًا وأحزمة بدلًا من التي أخذها منهم.[1]

دار الحرم

هي دار بناها (خمارويه) لزوجاته وأولاده ولخدمهم. ويحكى أن كميات الطعام المتبقية يوميًا كانت كبيرة جدًا فاعتاد الخدم المشتغلون في دار الحرم أن يبيعوا بقايا الطعام للعامة من الناس.

مواكب خمارويه

كان (خمارويه) يخرج في موكب يتقدمه الحاشية والعساكر، وراءهم ألف من الجنود السودانيين وكانوا يرتدون ملابس سوداء متقلدين سيوفهم..

إصطبلات خمارويه

بنى (خمارويه) لكل صنف من أصناف الدواب إصطبلات خاصة بها:
- إصطبلات للخيول - إصطبلات للجمال - دارًا للسباع.
- دارًا للفهود - دارًا للنمور -دارًا للفيلة.[2]

زريق

كان لخمارويه سبع مستأنس أزرق العينين، سماه (زريق) وكان يضع في رقبته طوقًا من الذهب ويسير طليقًا في القصر ولا يؤذي أحدًا. وكان زريق لا يأكل إلا بجوار خمارويه على مائدته، يلقي له بالدجاج واللحوم، وإذا نام خمارويه جلس زريق بجوار سريره يحرسه، ولا يسمح لأحد بأن يقترب منه.[3]

قصة

في أيام حكم (الأفضل) هبت رياح سوداء وأظلم الجو فارتعب الناس ولجئوا إلى المساجد ليحتموا بها. وقد دامت الرياح من العصر إلى المغرب، وظل الناس يبتهلون بالدعاء ويستغفرون **الله** حتى سكنت الرياح ورجعوا إلى بيوتهم سالمين.[4]

(1) بدائع الزهور ص 50.
(2) النجوم الزاهرة. ص150.
(3) النجوم الزاهرة ص150.
(4) بدائع الزهور ص 51.

مطبخ خمارويه

كان مصروف مطبخ خمارويه 23.000 دينار في الشهر وكان يتم إعداد الكثير من المأكولات فيه مثل:
الدجاج – اللحم الضأن – القطائف – العصيدة.

موت خمارويه

قتل خمارويه (896م) في دمشق على يد عبيده[1] ودفن في مصر في جبل المقطم. حكم مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون خلال عشر سنوات، وقد انتشرت الفوضى واضطربت الأحوال في أيامهم.

الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالي بن خمارويه

تولى بعد وفاة أبيه والخزائن فارغة لأن أباه أنفق كل مافيها من أموال على زواج (قطر الندى). من أهم أعماله أنه أنشأ مسجد الرصد، وسوق المرجوش وحفر خليج (أبو المنجي).

أبوموسى هارون بن بدر الجمالي

تولى بعد الأفضل ابنه هارون (896م) وكانت أحوال البلاد غير مستقرة. واختلف الوصي عليه مع قواد الجيش واضطربت الأحوال بينهم، وعزل (أبو موسى) بعد ثمانية أشهر من الحكم.

شيبان بن أحمد بن طولون

تولى الأمير شيبان من ولد الأمير (أحمد بن طولون) وكان يلقب (بأبي المناقب) (905م) وقد عزل عن الحكم، وكان آخر من حكم من آل طولون. أزال القائد العباسي (محمد بن سليمان) الدولة الطولونية وقضى عليها (905م) وقتل وخرب وعذب أهل مصر وأخرج أولاد (أحمد بن طولون) وأشعل النيران في مدينة القطائع.[2]

حدود الدولة الطولونية

امتدت حدود الدولة الطولونية من الشام والعراق شرقًا إلى برقة غربًا ومن مملكة الروم شمالاً إلى النوبة جنوبًا.

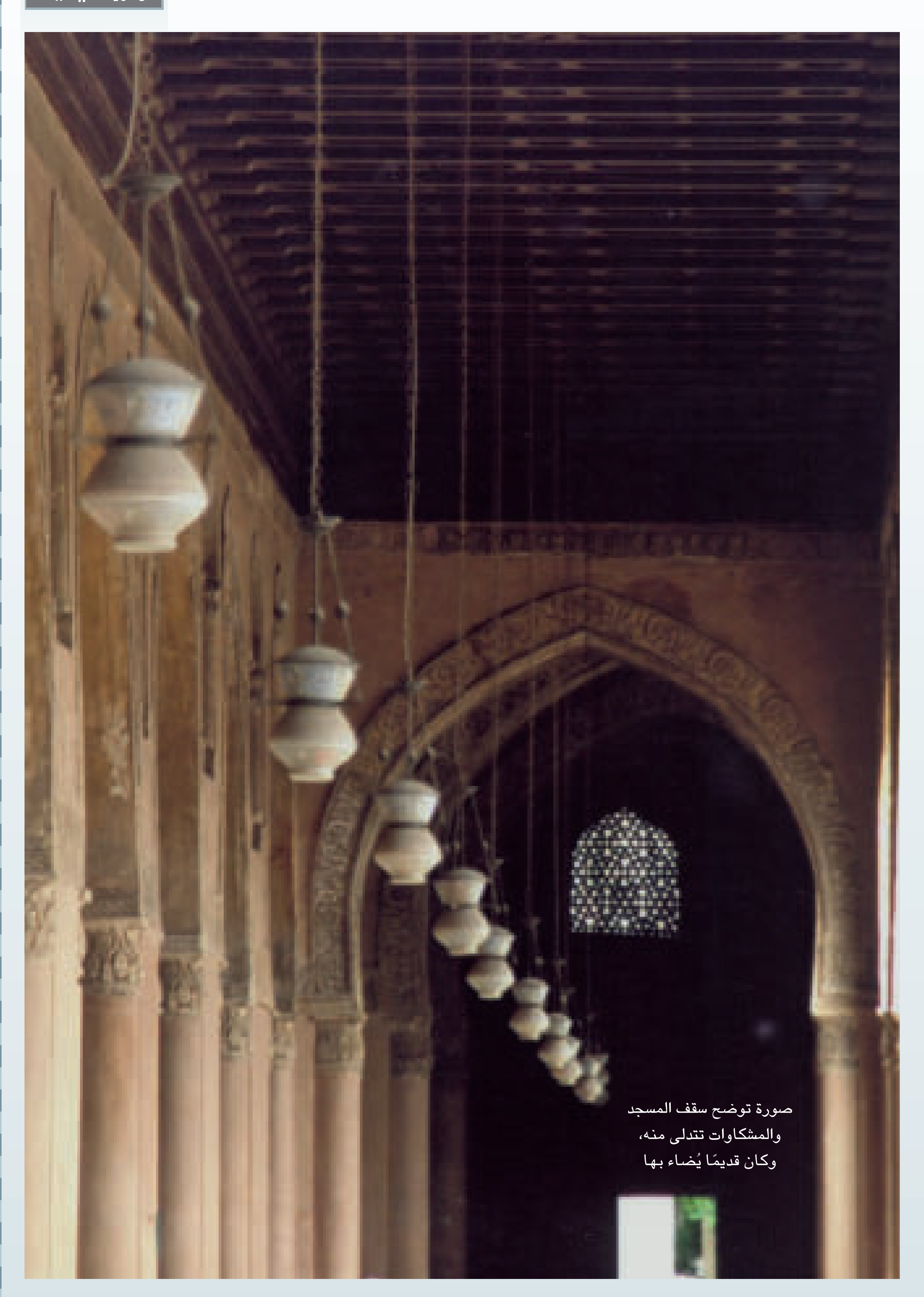
الجيـــش

كان أول جيش مستقلٍّ عن الدولة العباسية، وكان مكونًا من 100,000 جندي من جنسيات مختلفة من السودانيين واليونانيين والأتراك. كان جيشًا قويًّا منظمًا منضبطًا وقد استكثر (أحمد بن طولون) من شراء المماليك.
وفي عهد (خمارويه) أصبح عدد الجيش 400,000 بالإضافة إلى حرسه الخاص، وليطمئن على إخلاصهم زاد لهم في العطاء، فكان يعطيهم في السنة 900,000 دينار. وكان (أحمد بن طولون) يستعرض الجيش في أيام الأعياد وفي المناسبات المختلفة.

الأسطـــول

اهتم (أحمد بن طولون) بالأسطول، وخاصة بعد ضم الشام، فكان يحرص على حماية شواطئها والمحافظة على الاتصال البحري بينها وبين مصر، كما حرص على صد أي هجوم خارجي مستخدمًا الأسطول. كانت دار الصناعة في جزيرة الروضة، وقد بنى (أحمد بن طولون) بها أسطولاً ضخمًا مكونًا من مائة سفينة (شيني) وهي مراكب كبيرة لها مائة وأربعون مجدافًا مطلية باللون الأسود، ولها أبراج للدفاع عنها ومخازن قمح وصهاريج، أي (خزانات) للماء العذب.

(1) النجوم الزاهرة ص150.
(2) النجوم الزاهرة ص159.



صورة توضح سقف المسجد
والمشكاوات تتدلى منه،
وكان قديمًا يُضاء بها

الشرطـــة

كانت الشرطة من المناصب الهامة، وقد نظمها ابن طولون لحفظ الأمن والنظام في البلاد. وقد عين في هذه الوظيفه الأتراك.

السجـــن

قضى ابن طولون على اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين، وكانت السجون أماكن التهذيب والعقاب. وكان يوجد (18,000) مسجون في عصر الدولة الطولونية، وكانت السجون أنواعًا:

- **المطبق**: وهي سجون تحت الأرض.
- **البيوت**: كان هناك نوع من الحبس، يؤمر فيه المسجون بأن يلزم داره ولا يخرج منها.

وكان (أحمد بن طولون) يراعي المحبوسين ويفرج عن المظلومين. وأشهر مسجون في الدولة الطولونية هو القاضي (بكار بن قتيبة) الذي سجن بسبب رفضه لعن الخليفة العباسي الموفق على المنابر. وقد ظل مسجونًا في دار مخصصة لسجنه، وكانت بها نافذة مطلة على الشارع، يتحدث منها إلى الناس. وعند إطلاق سراحه رفض مغادرة هذه الدار وظل مقيمًا بها حتى مات.

النظـام الإداري

قسمت مصر إلى عدة كور (محافظات) وكان على رأس كل منها حاكم.

الوظائـــف

أمير الستر: قائد الحرس في قصر الخلافة.

وزير التنفيذ: الذي ينفذ أوامر الخليفة.

وزير التفويض: الذي يفوضه الخليفة لتولي الولاية.

صاحب الدست: كاتب ديوان الإنشاء.

كاتب السر: بمثابة سكرتير خاص يقوم بتدوين كل ما يجري في وجود الأمير.



صورة تُظهر خارج المسجد، وقد ظهرت عليه عوامل التعرية، وتتم فيه الآن عمليات الترميم

الدواويـــن

هي السجلات التي تكتب وتحفظ فيها المعلومات المهمة.

- **ديوان الإنشاء**: كان لهذا الديوان كاتب يقال له صاحب الدست الشريف لمكاتبات ورسائل الخليفة.
- **ديوان الأملاك**: لإحصاء الأراضي المملوكة للحكومة. وكانت تدر دخلاً كبيرًا.
- **ديوان الجند**: لإحصاء أعداد الجنود وأسمائهم ورواتبهم.
- **ديوان الخراج**: لإحصاء ضرائب البلد ووجوه إنفاقها الخراج: ضرائب على الأرض الزراعية.
- **المكوس**: ضرائب على الصناعة والتجارة.

ديـوان البريـد

الغرض الرئيسي من إنشائه هو سرعة وصول الأخبار من مقر الخلافة إلى الولايات المختلفة. وهو بريد خاص بالخليفة لينقل أوامره إلى الولاة وغيرهم.

أنواع البريـد:

- **بريد بــري**: ينقل الرسائل برًا، وكانت هناك محطات للبريد يغير بها عامل البريد دابته المتعبة بأخرى.
- **بريد بحري**: لنقل الرسائل بحرًا عن طريق المراكب.
- **بريد جـوي**: لنقل الرسائل جوًا عن طريق الحمام الزاجل.

علاقة الدولة الطولونية بالخلافة العباسية

- كان الخليفة العباسي رمزًا للسيادة الروحية والدينية لكل المسلمين، وقد ظل (أحمد بن طولون) طوال مدة حكمه معترفًا بسلطة الخليفة العباسي حريصًا على إرضائه، على الرغم من أنه كان في كثير من الأحيان أقوى من الخليفة.
- كان الخليفة العباسي في عهد (أحمد بن طولون) هو المعتمد وكانت علاقته طيبة بأحمد بن طولون وكان يواجه صعوبات في حكمه فحاول الهرب إلى مصر ليعيش في حماية ابن طولون.
- ثم حكم بعده (الموفق طلحة) وساءت علاقته بخمارويه وتقاتل معه وهزم (خمارويه) جيوش (الموفق) ثم عقد معه صلحًا على أن يحكم مصر والشام.
- ثم جاء الخليفة (المعتضد) وزوجه خمارويه ابنته (قطر الندى)، وكانت العلاقات بينهما على أحسن حال.



صورة النص الذي يُوضح زمن وتاريخ بناء مسجد أحمد بن طولون

الحيـاة العلميـة

انحصرت الثقافة في علوم القرآن والدين والنحو والصرف. كان جامع ابن طولون ملتقى العلماء والفقهاء، وكانت تلقى به الدروس. ومن أشهر فقهاء ذلك العصر (سيبويه المصري) الذي كان يعلم أحكام ومعاني وقراءات القرآن. ومن أشهر المؤرخين (محمد بن يوسف الكندي).

أشهـر الأطبـاء

إبراهيم بن عيسى: كان طبيبًا مشهورًا وكان يعالج (أحمد بن طولون).

خلف الطولوني: هو (أبو علي خلف الطولوني)، كان يعالج أمراض العيون. وقد كتب كتاب (النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما) في (38) عامًا وتعتبر فترة طويلة جدًا.[1]

(1) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ج2 ص353 - 254.

الحسن بن زيرك: كان (أحمد بن طولون) يكثر من شرب لبن الجاموس فأصابه مرض في بطنه ولم ينجح في تشخيص مرضه إلا (ابن زيرك). وقد مات ابن طولون بسبب هذا المرض.(1)

سعيد بن توفيل: كان طبيب (أحمد بن طولون) الخاص، يصحبه في أسفاره.

القضاة

كان (أحمد بن طولون) يعين بنفسه القضاة الملمين بالشريعة الإسلامية على المذاهب الأربعة، والمعروفين بالعدل والتقوى.

الحالة الاقتصادية

خلت مصر في العصر الطولوني من الأزمات الاقتصادية، وكان عصر رخاء وإنتاج ونهضة زراعية وصناعية وتجارية وفنية. وارتفع مستوى المعيشة حتى أصبحت مصر أشد قوة وثراء من الدولة العباسية نفسها.

الحرف والصناعات

توافرت بمصر عوامل قيام الصناعات الناجحة من مواد خام و أيدٍ عاملة ورأس مال وأسواق فازدهر عدد من الصناعات مثل:

صناعة المنسوجات: تطورت صناعة المنسوجات في العصر الطولوني، وصنعوا الأقمشة الثمينة وكانت أسماء الخلفاء والأمراء وألقابهم تكتب على المنسوجات مصحوبة بآيات قرآنية. وكان يتم إرسال أقمشة ثمينة كهدايا للخليفة العباسي. التطريز هو زخرفة القماش بعد أن يتم نسجه بخيوط ملونة وكانت دار الطراز تصنع النسيج في الإسكندرية وتنيس وأخميم وأسيوط. وازدهرت صناعة المصبوغات وكانت الأقمشة تصبغ بألوان مختلفة.

صناعة ورق البردي: ازدهرت هذه الصناعة بمصر، وكان يتم تصدير الورق إلى بلدان العالم مثل بغداد.



صورة لمدخل المسجد، ويُلاحظ بها شكل الزخارف التي تميز السور، وشكل السلم الذي يؤدي إلى الباب الرئيسي

(1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص354.

صناعة الصابون

كانوا يصنعون الصابون من زيت الخس و زيت الفجل وزيت الزيتون.

صناعة السكر: كانوا يعصرون القصب ويستخرجون منه السكر، وكان يتم عصر القصب في شهر ديسمبر من كل عام.

صناعة الأسلحة: صنعوا ما يحتاجه الجيش من عدد وأسلحة و سفن حربية، وقد ازدهرت هذه الصناعة بسبب أعداد الجيوش الكبيرة.

الصناعات المعدنية: صناعة الحلي: كان يتم دق المعادن و زخرفتها، وتكون عادة من الذهب والفضة.

صناعة الزجاج: كانوا يصنعون الأواني الزجاجية، فيتم نفخ الزجاج في قوالب ويضاف إليه الرسوم الهندسية والأشكال النباتية الملونة والكتابات المختلفة وكان يتم إضافة أسماء الأمراء.

الأخشاب المحفورة: استخدم الطولونيون الأخشاب في مبانيهم وقصورهم ومساجدهم، كما صنعوا بالأخشاب المنابر والأبواب والسقوف وحفروا عليها أشكالاً هندسية وزخارف نباتية وكتابات كوفية لآيات قرآنية. وقد شاع أسلوب سامراء، وهو استخدام الحفر العميق الذي يفصل الأجزاء المختلفة عن بعضها، ثم يشطف حرفها.

الخزف: صنعوا الخزف ذا البريق المعدني الملون بالأصفر والأخضر والأبيض، وكان يتم صنعه في الفسطاط.

استخدام الجص: اتخذ الطولونيون الجص (الجبس) كمادة أساسية لطلاء وزخرفة المباني بأشكال هندسية وفروع نباتية متداخلة.

التجارة

كان النشاط التجاري واسعًا وخاصة بين مصر وبلاد الشام فأصبحتا حلقة اتصال بين تجارة المشرق والمغرب. وكانت مصر تتقاضى ضرائب جمركية على البضائع التي تمر بها. وقد استقر بمصر كثير من الفرس وعملوا في التجارة.

السلع

كانوا يحضرون التوابل والحرير والأحجار الكريمة والرقيق من الشرق. كانت التجارة في هذه السلع تجلب أرباحًا وفيرة على التجار. من أشهر هؤلاء التجار الأثرياء (عبد الله بن الجصاص الذي أشرف على جهاز(قطر الندى) بنت (خمارويه).





الفسطــــاط

ظلت مدينة الفسطاط التي بناها (عمرو بن العاص) مركزًا مهمًّا للأسواق والمباني الحكومية ومركزًا مهمًّا للحياة اليومية. فلم تفقد أهميتها بعد إنشاء القطائع، وكان يوجد بها:

- 360 مسجدًا.
- 80 شارعًا.
- 117 حمامًا.
- كما كانت مساكنها مكونة من خمسة أو ستة طوابق، وكان عدد سكان المبنى يصل إلى 200 شخص.

الزراعــــة

اهتم الخليفة (أحمد بن طولون) بالزراعة، ونهض بها لأن مصر بلد زراعي، وتعتبر الزراعة المصدر الرئيسي للدخل فيه، كما اهتم أيضًا بالري، وأمر بتطهير الترع وأنشأ القناطر، وأقام مقاييس النيل، وألغى كثيرًا من الضرائب التي فرضها عامل الخراج (أحمد بن المدبر). ساد الأمن وشجع (أحمد بن طولون) الفلاحين على امتلاك الأراضي وأمدهم بالبذور والدواب والآلات فزادت الرقعة الزراعية حتى تم زراعة حوالي مليون فدان، فعم الرخاء، ورخصت الأسعار حتى بيع عشرة الأرادب قمحًا بدينار في زمن أحمد بن طولون، وخمسة الأرادب بدينار في عهد خمارويه.

وقد أدخل ابن طولون أنواعًا جديدة من المحاصيل من خضار وفاكهة وحبوب وزهور، وزرع القمح والقطن والكتان وقصب السكر والفواكه والخضراوات.



الأســــواق

سوق الأفضل: وهو خاص بأمير الجيوش وابن خمارويه بن (أحمد بن طولون).

سوق البزازين: ويبيع الأقمشة.

دار أحمد بن المدبر: لما عزل ابن طولون (أحمد بن المدبر) عن جباية الخراج هدم داره وأقام مكانها سوقًا للرقيق.

الطبقات الاجتماعية

طبقة الحكام والأمراء: تمتع الأتراك والأشراف بمكانة عظيمة ونالوا الاحترام والتقدير. وقد عاشوا في فخامة وأبهة وبنوا القصور والديار الفاخرة، واتخذوا حرسًا لهم من مختلف الجنسيات.

طبقة التجار وكبار الموظفين: هم رجال بني طولون الذين تولوا المناصب الهامة في الدولة، والأعمال الإدارية مثل كبار الكتاب والقضاة ورجال البلاط وكبار الملاك والتجار، وقد تمتعوا بالغنى والثراء والرفاهية والنفوذ. وبنوا القصور، وكانوا يقتنون الجواري ويقيمون الكثير من الحفلات.

الطبقة الوسطى: هي طائفة الحرفيين والصناع والزراع وصغار الموظفين والكتاب. سكنت هذه الطائفة في أطراف المدن وعاشوا حياة ميسرة في ظل الرخاء الذي ساد مصر.

طبقة العامة: وهي العدد الأكبر من الشعب، وهم صغار الصناع والحرفيون والفلاحون وصغار الموظفين وكان دخلهم محدودًا.

الماذرائيون

كانت هناك أسرة غنية في مصر يطلق عليها الماذرائيون، وقد كونوا ثروة طائلة، ويروى أن أحد أفرادها ويدعى (أبو بكر الماذرائي) كان متولي الخراج في زمن خمارويه. قيل عنه إنه حج إلى بيت الله الحرام اثنتين وعشرين مرة، وأنفق على كل حجة 150,000 دينار، وأنه كان يسافر ومعه تسعون ناقة لهودجه و400 ناقة تحمل ملابسه وأثاثه وطعامه. وحين غضب عليه خمارويه وصادر أمواله أخذ منه 30 إردب ذهبٍ، أي ما يوازي 300 كيلو ذهب صافٍ.



بنو مهاجر

كانت أسرة بني مهاجر أسرة فارسية مكونة من أربعة إخوة، قدموا إلى مصر وخدموا ابن طولون ثم تولوا مناصب هامة في الإدارة وكونوا ثروة عظيمة وكان لهم نفوذ قوي. وكانوا يعيشون عيشة بذخ وترف ويكثرون من إعطاء النقود للفقراء.

الشعر في العصر الطولوني

ازدهر الشعر في العصر الطولوني وكان أنواعًا:

شعر وصف الطبيعة: وهو يتناول مواضيع مثل النيل والعشب، والأشجار والقمر والمطر.

شعر الإخوانيات: وهو نوع من الشعر يعبر عن استقرار الحياة في المجتمع العربي ويتناول مظاهر الحياة اليومية مثل التهنئة والعتاب والشكر والاعتذار والفكاهة.

شعر رثاء الدول والآثار: يُرثى به الميت أو البيوت التي زالت.

شعر المدح: وهو وصف لمزايا شخص معين.

شعرالهجاء: هو شعر فيه ذم لشخص معين.

شعر الغزل: هو شعر يصف جمال ومحاسن المحبوب.

نموذج لقصيدة تمدح (أحمد بن طولون)

طال الهدى بابن طولون الأمير لكي ... يزهو به الدين عن دينٍ وإسلامِ
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها ... منه على الهول ماضٍ غير محجامِ

نموذج من شعر البحتري في مدح خمارويه

لقد رأيت جيوش النصر منزلة ... على جيوش أبي الجيش ابن طولونا
يوم الثنية إذ ثنى بكرته ... في النقع خمسين ألفًا أو يزيدونا

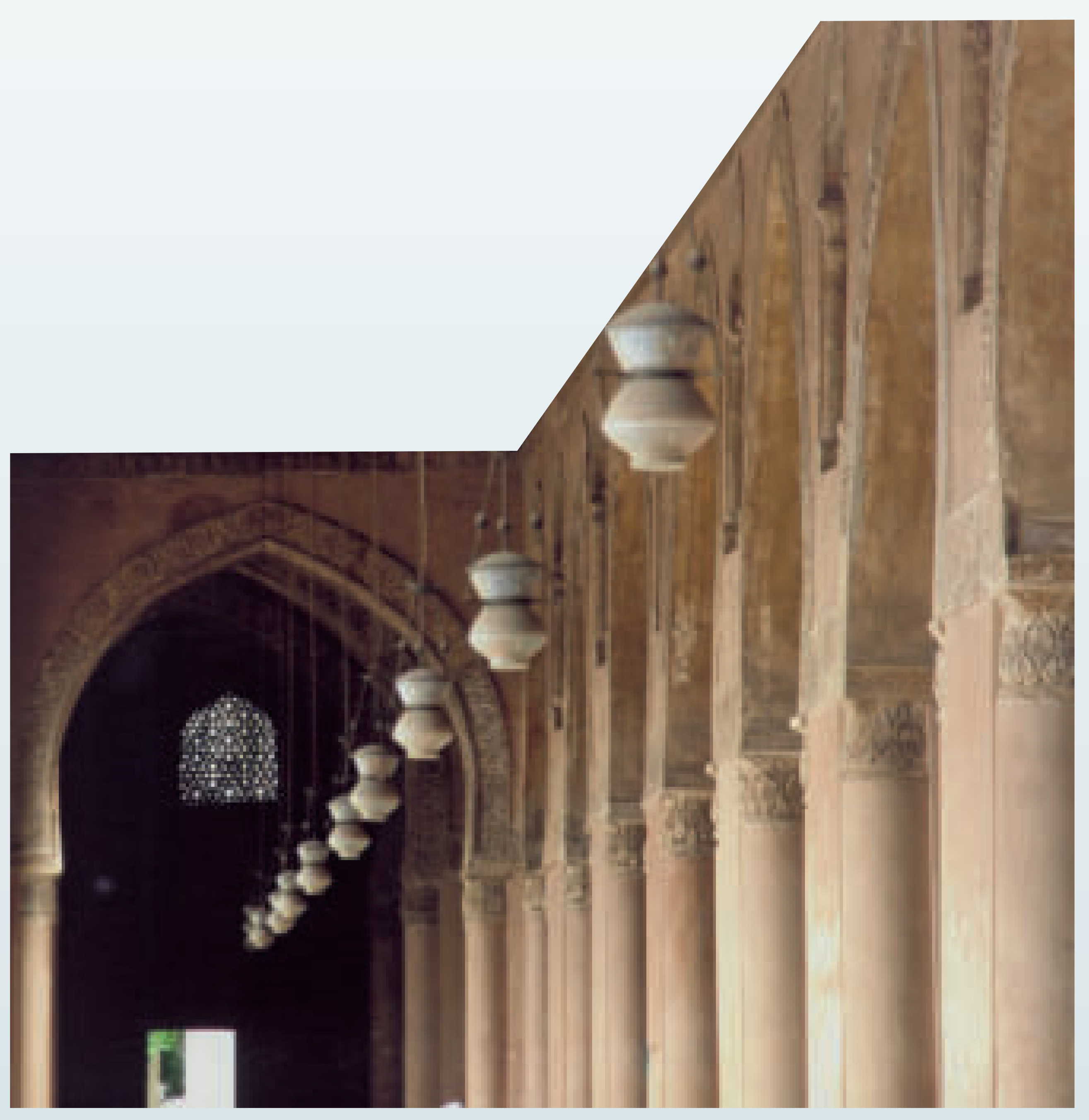
كان البحتري ينتظر قدوم خمارويه للشام وينظم له قصيدة في كل زيارة يأخذ بعدها هدايا وخِلَعًا تفوق التصور.

سك النقود

أسس (أحمد بن طولون) دارًا لضرب النقود، سكت بها الدنانير التي عرفت بالأحمدية والعملات الذهبية والفضية وكانت متأثرة بطراز الخلافة العباسية. وقد قام ابن طولون بوضع اسمه على العملة.

سقوط الدولة الطولونية

وفي عهد الخليفة العباسي (المستكفي) سنة 905م دخلت الجيوش العباسية القطائع تحت قيادة (محمد بن سليمان) وكان يحكم مصر (شيبان) وهو خامس الولاة الطولونيين، وكانت الفوضى تعم البلاد. دخلت جيوش العباسيين إلى القطائع، وقبض القائد (محمد بن سليمان) على أفراد الأسرة الطولونية وقيدهم بالسلاسل والأغلال وبعثهم إلى بغداد وحبسهم وأخذ أموالهم وأزال بقايا الدولة الطولونية وهدم وخرب كل آثار الطولونيين ما عدا جامع ابن طولون. كان عمر الدولة الطولونية قصيرًا فقد حكمت مصر والشام 38 عامًا فقط ولكنه كان عصر رخاء واستقلال. وبعد سقوط الدولة الطولونية عادت مصر ولاية عباسية لمدة ثلاثين سنة، وكانت فترة اضطرابات تولى فيها مصر اثنا عشر واليًا. وكانت الدولة العباسية تمر في هذه الفتره باضطرابات شديدة وعدم استقرار، وعجز الولاة عن السيطرة على الأمور في البلاد. وفي هذه الفترة هجمت ثلاث حملات فاطمية على مصر.



الولاة في الفترة ما بين الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية

- **عيسى النوشيري** (905م):
ولاه الخليفة العباسي (المكتفي)، ولد بمصر، فأحبه أهلها وكان من القواد الذين أتوا إلى مصر مع (محمد بن سليمان). كان شجاعًا و مقدامًا. [1]

- **زكا الرومي** (915م):
هو من ولاة الخليفة العباسي (المقتدر)، تولى لمدة أربع سنوات ثم عزل عن الحكم.[2]

- **أبو المنصور تكين التركي** (921م):
هو مولى الخليفة العباسي (المعتضد بالله)، تولى على مصر مرتين ثم عزل عنها.

- **هلال بن بدر المصري** (921م):
انقلب الناس والجنود ضده وساد الفساد في مصر ولم يطل حكمه وعزل عنه.

- **أحمد ابن كيلغ** (932م):
تولى مرتين، انقلب الجنود ضده، وأحرقوا داره ووقعت فتنة عظيمة في أيامه ثم عزل عن الحكم.

- **محمد بن طغج الإخشيد** (934م):
تحارب مع أتباع (أحمد بن كيلغ) وقد تعرضت مصر في هذا الوقت لمحاولات الفاطميين لغزوها ولكن هزمهم (محمد بن طغج الإخشيدي) (934م).



(1) النجوم الزاهرة ص162.

(2) النجوم الزاهرة ص166.



شكل يُوضح الزخارف التي حُفرت على الرخام على
حوائط مسجد ابن طولون

الدولة الإخشيدية

الدولة الإخشيدية



قامت الدولة الإخشيدية بعد ثلاثين سنة من سقوط الدولة الطولونية وهي فترة زمنية متقاربة، فكانت أوجه الشبه كثيرة بين الدولتين. تنتسب الدولة الإخشيدية إلى مؤسسها (محمد بن طغج بن جف الإخشيد) وهو من أسرة ملوك فرغانة (بلاد ما وراء النهر) الذين أحضرهم الخليفة العباسي (المعتصم)[1]. عمل (جف) جد الإخشيد مع الخلفاء العباسيين (المعتصم والرائق والمتوكل). ثم أصبح ولده(طغج) من قواد (أحمد بن طولون)ولمع في بلاط الطولونيين وحقق انتصارات على الروم فكافأه خمارويه وجعله واليًا على دمشق. ولكن بعد ذلك ساءت علاقة طغج بخمارويه فوضعه في السجن هو وابنيه محمدًا وعبيد الله. ومات (طغج) بالسجن وأخرج الخليفة العباسي (المقتدر) ابني طغج من السجن بعد سقوط الدولة الطولونية.

محمد بن طغج الإخشيد (935م – 969م)

هو مؤسس الدولة الإخشيدية، ولد (محمد بن طغج الإخشيد) في بغداد، وكان من الجنود الأتراك العاملين لدى الخلافة العباسية.

وشارك (محمد بن طغج) القائد العباسي (محمد بن سليمان) في القضاء على الدولة الطولونية. وقد ولاه الخليفة (المقتدر) على دمشق ثم ولاه على مصر بشكل مؤقت ولكن لعدم استقرار الأحوال في دمشق لم يستطع (محمد بن طغج) الذهاب إلى مصر لحكمها فأناب من يحكمها بدلاً عنه. وعندما ازدادت هجمات الدولة الفاطمية على مصر جاء (محمد بن طغج الإخشيد) وحارب الفاطميين وانتصر عليهم.

ولاه الخليفة العباسي (الراضي) على مصر(935م) ولقبه بالإخشيد لكسب مودته بعد انتصاراته العظيمة على الفاطميين. وكلمة طغج معناها (عبد الرحمن) بالعربية أما لقب الإخشيد فهو لقب إيراني، معناه (ملك الملوك).

(1) النجوم الزاهرة، ص171.

انفصاله بمصر

انقلب الخليفة العباسي (الراضي) على (محمد بن طغج) وأرسل جيشًا بقيادة (محمد بن رائق) إلى الشام لينتزع منه مصر (940م)[1] فألغى الإخشيد اسم الخليفة العباسي من الخطبة وأعلن استقلاله بمصر عن الدولة العباسية وهزم (محمد بن رائق) بعد معركة شديدة واحتفظ بولايته لمصر. ثم مات الخليفة (الراضي)، و جاء أخوه (المتقي بالله) ووافق على ولاية الإخشيد لمصر، وبعد سنتين من قيام الدولة الإخشيدية ضم الإخشيد الشام بعد موت (ابن رائق) وولاه الخليفة العباسي على الحجاز ووكل له مهمة الإشراف على الحرمين الشريفين. وقد توفي بدمشق ودفن بها.

حدود الدولة الإخشيدية

امتدت حدود الدولة الإخشيدية من مصر والشام والحجاز إلى جبال طوروس (سلسلة جبال في جنوب شرق هضبة الأناضول التركية).

حكم الإخشيد

وافقت الدولة العباسية على حكم (محمد بن طغج الإخشيد) المستقل وعلى جعله وراثيًّا في أسرته من بعده لمدة ثلاثين عامًا. كان الإخشيد شجاعًا مقدامًا حازمًا طموحًا قويًّا وكان يجلس بنفسه للنظر في مظالم الناس كل يوم أربعاء.وكان يخرج في مواكب عظيمة ويمر وسط جموع الناس التي كانت تعظمه وتوقره. و قد ساد الهدوء والسكينة في البلاد في حكمه لأول مرة منذ ثلاثين سنة. وكان بلاطه مجمعًا للعلماء والأدباء والشعراء، وازدهرت البلاد في عصره وزاد العمران وغرست البساتين وشيدت البيمارستانات. وقد راسله ملوك الروم ليكسبوا مودته لخوفهم من قوته ونفوذه.



جزء من مقبرة «طباطبا» وهو أحد وزراء الدولة الإخشيدية، ولم يبق من آثار هذه الدولة سوى هذا الأثر

(1) النجوم الزاهرة، ص175.

الحمدانيون

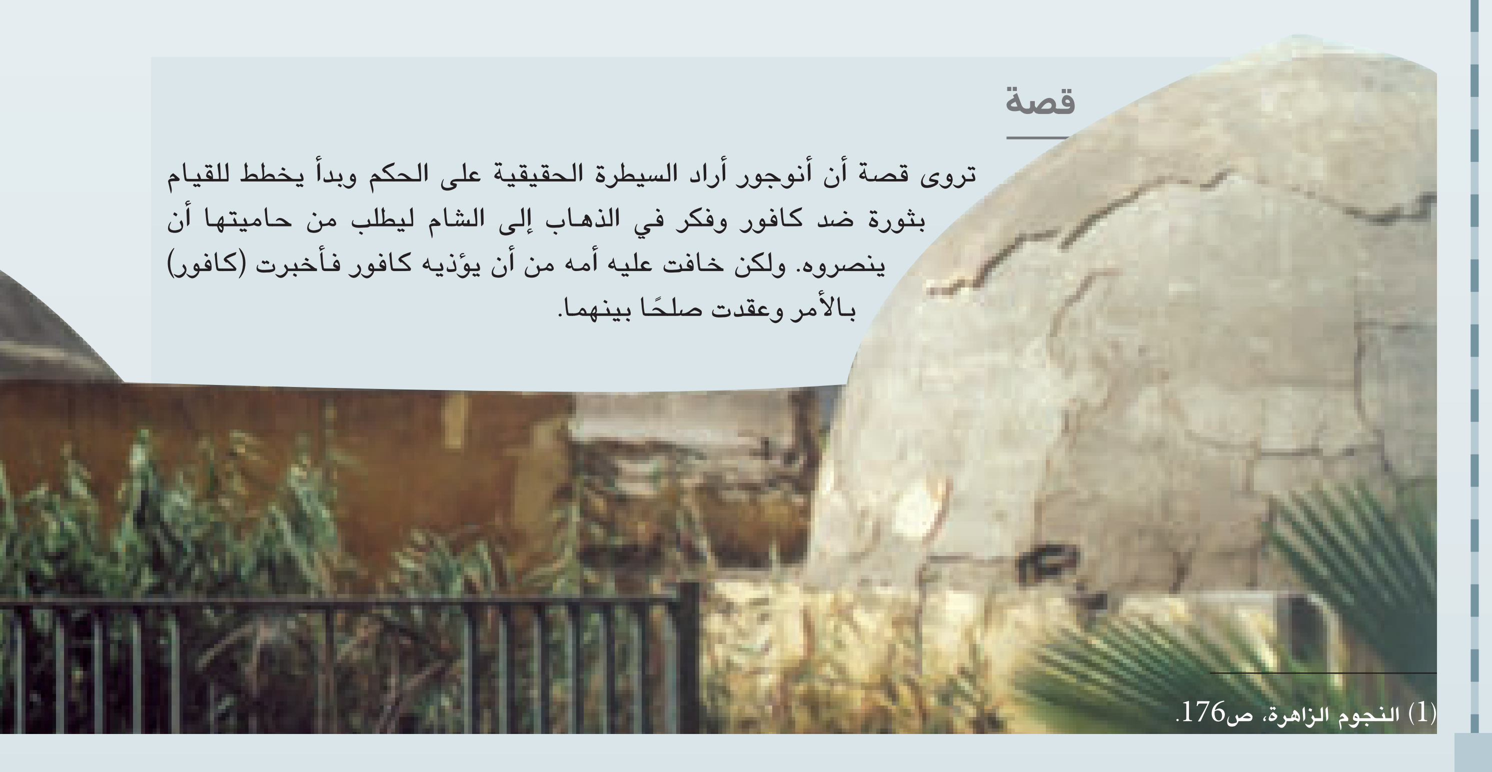
تنتسب هذه الأسرة إلى (حمدان بن حمدون) استقل بقبيلته وكون دولة في الموصل (العراق) واستولى على حلب. زادت قوته واعترف به الخليفة العباسي. وقد حارب (محمد بن طغج الإخشيد) الحمدانيين وانتصر على قائد جيوشهم (سيف الدولة الحمداني). قام سيف الدولة بمحاولات عديدة للاستيلاء على بلاد الشام، ولكن تصدى له الإخشيد وأخضعه لسيادة مصر.

أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد (946م - 960م)

هو (أنوجور محمد بن جف)، وأنوجور هو اسم أعجمي معناه محمود باللغة العربية.[1] تولى الحكم بعد وفاة أبيه وعمره أربعة عشر عامًا فجعلوا الخادم الحبشي (أبو المسك كافور) وصيًّا عليه ومدبرًا لشئون مملكته، انفرد كافور بالحكم وكان يعطي أنوجور كل سنة (400,000) دينار ويتصرف هو في باقي النقود. خرج القائد (سيف الدولة الحمداني) والي دمشق ليغزو مصر، فخرج كافور لملاقاته ومعه أنوجور وعمه (الحسن بن طغج) فالتقوا في الرملة وهزموه هزيمة منكرة، ثم عقد صلح بينهما على أن يحتفظ سيف الدولة بحلب ويعود أنوجور وكافور إلى مصر. كما صد كافور هجمات القرامطة على الشام فزادت شهرته في مصر وقوي نفوذه ودعا له الناس علي المنابر وكان محبوبًا من الشعب والرؤساء والجنود؛ لأنه كان كريمًا ويعطيهم الهدايا الكثيرة. توفي أنوجور سنة (1028م) فجأة بعد أن تولى حكم مصر لمدة أربعة عشر عامًا.

علي بن محمد بن طغج الإخشيد (960م - 966م)

تولى بعد وفاة أخيه أنوجور وكان في الحادية والعشرين من عمره، ولكن كافور عين نفسه وصيًّا عليه واستبد بالحكم مثلما فعل مع أخيه أنوجور وخصص له راتبًا سنويًّا قدره (400,000) دينار وازداد نفوذ كافور أكثر وكان الحاكم الفعلي لمصر. لم تكن العلاقة طيبة بين (علي بن الإخشيد) وكافور لأنه منع (عليًّا) من الخروج للناس أو الاجتماع بهم، وجعله سجينًا في قصره. اشتد التهديد الفاطمي لمصر في حكمه وأغاروا على الإسكندرية والبحيرة وهجم ملك النوبة على أسوان في جنوب مصر. ووقع غلاء شديد بسبب انخفاض منسوب النيل وارتفعت الأسعار. توفي عليٌّ عام (966م) بعد خمس سنوات من الحكم، ودفن في بيت المقدس بجوار أبيه وأخيه وبقيت مصر بدون حاكم واتفق الناس على تعيين كافور حاكمًا لمصر؛ لأنه كان بالفعل يدير مصر لسنوات طويلة ولم تعارض الدولة العباسية في بغداد توليه حكم مصر.



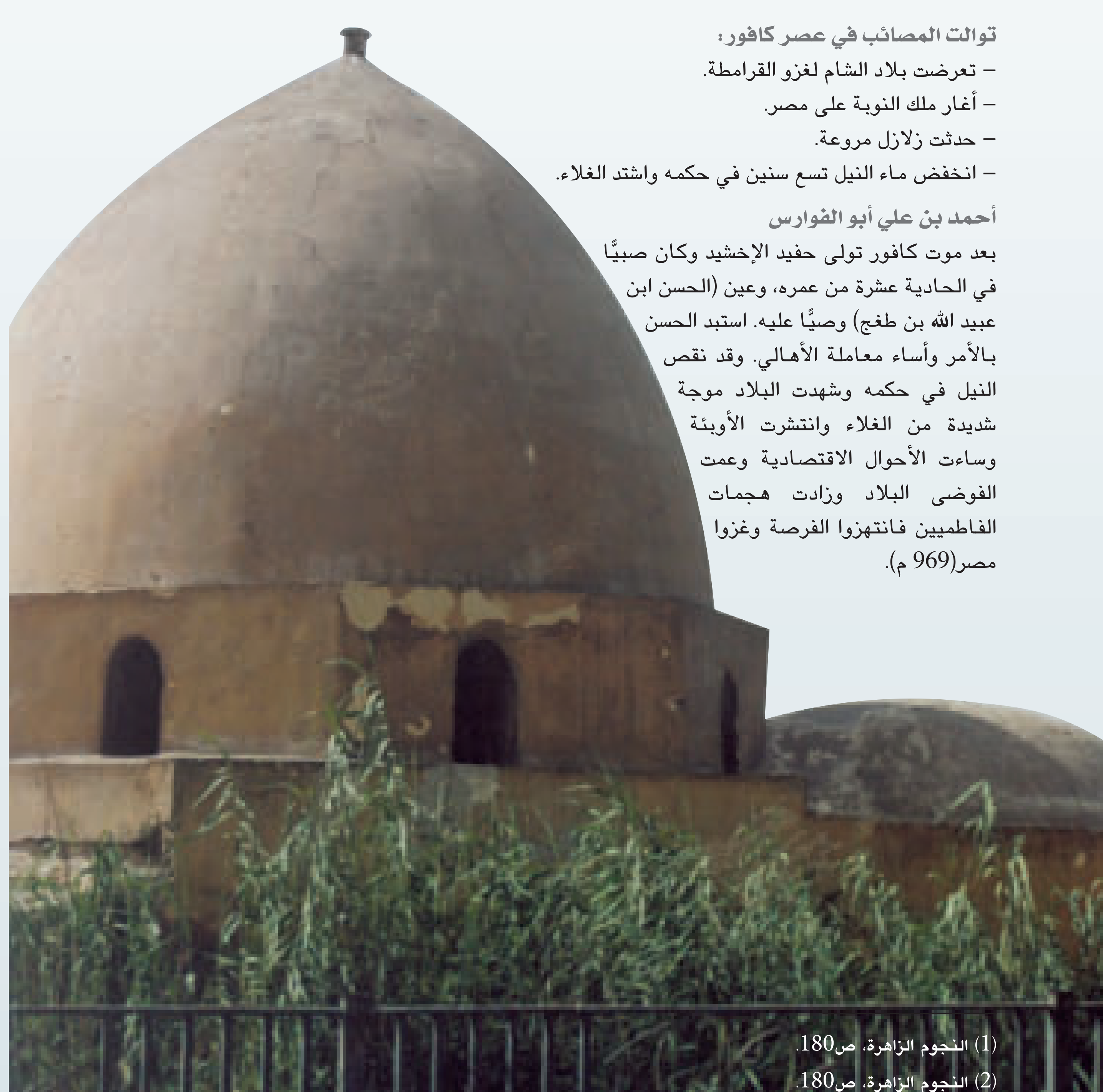
قصة

تروى قصة أن أنوجور أراد السيطرة الحقيقية على الحكم وبدأ يخطط للقيام بثورة ضد كافور وفكر في الذهاب إلى الشام ليطلب من حاميتها أن ينصروه. ولكن خافت عليه أمه من أن يؤذيه كافور فأخبرت (كافور) بالأمر وعقدت صلحًا بينهما.

(1) النجوم الزاهرة، ص176.

كافور أبو المسك الإخشيدي (966-968م)

هو الأستاذ (أبو المسك كافور)، كان ضمن غلمان (محمد بن طغج الإخشيد) اشتراه بثمانية عشر دينارًا[1] ثم أعتقه ورقَّاه حتى صار من كبار القواد، وهو ينتمي لأصول حبشية. تولى مصر(966م) ولاه الخليفة العباسي (المطيع) على مصر والشام والحرمين وكان يلقب بالأستاذ ويدعى له على المنابر يوم الجمعة.[2] فرض سيطرته على الحكم في مصر دون أن يكون له صفة شرعية وأثبت مقدرة فائقة في إدارة شئون البلاد وحافظ على وحدة مصر والشام وبلاد المغرب حتى جبال طوروس. تولى كافور ولاية مصر مدة ثلاث وعشرين سنة، حكم فيها باسم أولاد الإخشيد وانفرد سنتين بحكم مصر بمفرده. كان كافور سياسيًّا ذكيًّا يدين بالطاعة للعباسيين كان محبًّا للعلوم والآداب. وكان يجلس كل يوم سبت للنظر في مظالم الناس ويحضر معه وزيره (أبو الفضل جعفر بن الفرات) والفقهاء والقضاة والشهود وأعيان البلد.دافع عن البلاد ضد القرامطة، ومات بعد حوالي سنتين وأربعة أشهر من توليه الحكم في مصر ودفن في القدس.



توالت المصائب في عصر كافور:

- تعرضت بلاد الشام لغزو القرامطة.
- أغار ملك النوبة على مصر.
- حدثت زلازل مروعة.
- انخفض ماء النيل تسع سنين في حكمه واشتد الغلاء.

أحمد بن علي أبو الفوارس

بعد موت كافور تولى حفيد الإخشيد وكان صبيًّا في الحادية عشرة من عمره، وعين (الحسن ابن عبيد الله بن طغج) وصيًّا عليه. استبد الحسن بالأمر وأساء معاملة الأهالي. وقد نقص النيل في حكمه وشهدت البلاد موجة شديدة من الغلاء وانتشرت الأوبئة وساءت الأحوال الاقتصادية وعمت الفوضى البلاد وزادت هجمات الفاطميين فانتهزوا الفرصة وغزوا مصر(969 م).

(1) النجوم الزاهرة، ص180.

(2) النجوم الزاهرة، ص180.

أمراء الدولة الإخشيدية

- محمد بن طغج
- أبو القاسم أنوجور أبو الحسن علي
- كافور الإخشيدي
- أبو الفوارس أحمد بن علي

مجالس كافور

كان كافور يقرب إليه الشعراء وكانوا يقرءون في مجالسه كل ليلة القصائد الشعرية والسير مثل تاريخ وأخبار الدولة الأموية و العباسية. وكان يستمع إلى الموسيقى والمغنين والمغنيات وله أعداد كبيرة من الغلمان الروم. كان كافور كريمًا يكثر من إعطاء الخلع والهدايا ويحب أن يقضي حوائج الناس.

مائدة كافور

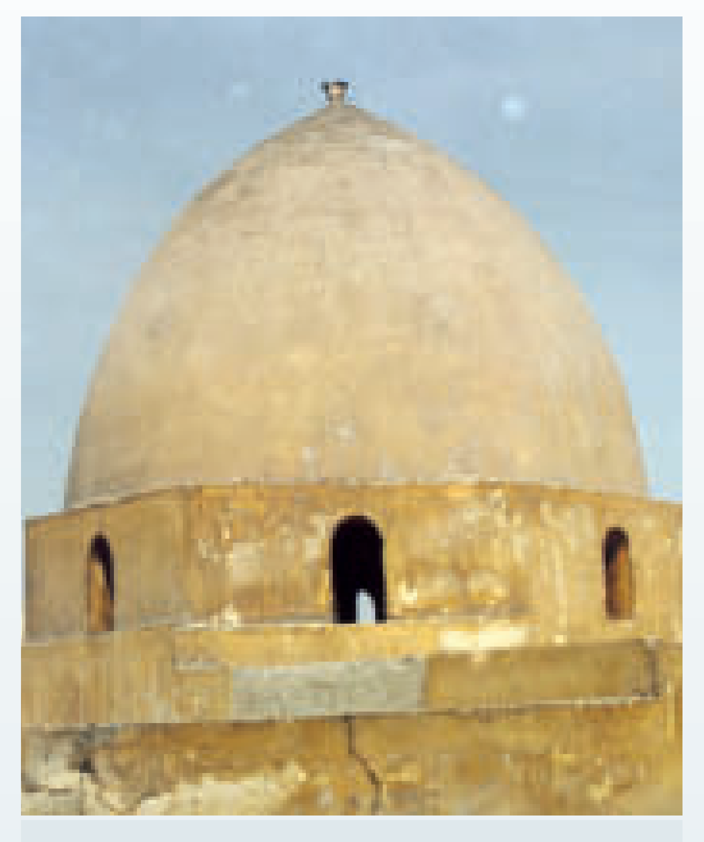
كانت موائد (كافور الإخشيدي) عامرة بأصناف الحلوى والطعام، و كان يحضرها الخاصة والعامة من الشعب.

كرم كافور الإخشيدي

كان الموظفون في عهد كافور الإخشيدي يخرجون في عيد الأضحى ومعهم بغال محملة بالذهب وكشوف بأسماء المحتاجين ويمرون على بيوت الناس ويعطونهم الأموال ويقولون لكل منهم «أبو المسك كافور الإخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك اصرف هذا في منفعتك».

الشعر

اعتنى الخلفاء في العصر الإخشيدي بالأدب والشعر، كان كافور الإخشيدي يعقد مجلسًا يحضره المثقفون والأدباء والشعراء، وقد كثر الشعراء في العصر الإخشيدي حتى وصل عددهم ما يقارب أربعين شاعرًا معاصرًا. وفد الشعراء على مصر من الدول الأخرى أيضًا مثل (أبو الطيب المتنبي) وكان الشعر يتناول وصف الطبيعة، كما كثر أيضًا شعر الإخوانيات والمدح وشعر الهجاء.



قصة

وقع في عصر كافور زلزال عظيم في مصر وهرب الناس فدخل شاعر يدعي (محمد بن عاصم) على كافور في موكبه فأنشده أبيات تقول:

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها

لكنها رقصت من عدله طربا

فأعجبت هذه القصيدة كافور فمنح الشاعر ألف دينار، فلما عرف الشاعر المشهور المتنبي بمنحة كافور دخل إلى مصر ومدح كافور بقصائد كثيرة طامعًا في كرمه.[1]

(1) بدائع الزهور، ص54.

نموذج من شعر وصف الطبيعة:

اشــرب علـى النيــل إذا مـا المطــر   نثَّـــر فيـــه مثـــل نثـــر الـــدرر
وانظـــر إلـى الروضـــات في شطـــه   كأنمـــا تحكـــي عليـــه الطـــــرر

المتنبي

عاش الشاعر (أبو الطيب المتنبي) أربع سنوات في بلاط كافور ومدحه بقصائد خالدة. كان المتنبي يطمع أن يسند إليه كافور ولاية تابعة لمصر أو منصبًا كبيرًا، فأعطاه كافور هدايا كثيرة، ولكن لم يعينه في المناصب التي كان يطمع بها. ولما سئل كافور عن السبب قال إن من ادَّعى النبوة (يتهكم على اسم المتنبي) يستطيع أن يدعي الملك والسيادة فغضب المتنبي وهجر مصر وهجا (كافور) أي ذكره بالسوء بشعر كثير.

نموذج لشعر مدح المتنبي لكافور

قـواصــد كـافــور تــوارك غيـــره   ومـن قصـد البحـر استقـل السـواقيـا
فـجـاءت بنـا إنسـانَ عيـن زمانـه   وخـلَّـت بـياضـًا خـلـفهـا ومـآقيـا

نموذج شعر هجاء المتنبي لكافور

إنـي نـزلــتُ بكـذابيــن ضيفهـــمُ   عـن القِـرى وعـن الترحـالِ مـردودُ
جـودُ الرجـال مـن الأيـدي وجودهُـم   مـن اللسـانِ فـلا كانـوا ولا الجـودُ



الرقيق

كان في مصر أسواق لبيع الرقيق، وهم جوارٍ وغلمان وعبيد و إماء. وكان بعض هؤلاء الغلمان يتم تربيتهم وتعليمهم أمور الجندية ليصيروا حرسًا وأحيانًا كانوا يصلون إلى مناصب قيادية في الجيش، ومنهم من وصل إلى الحكم مثل (كافور الإخشيدي). كان كثيرًا ما يتم عتق العبيد من قبل أصحابهم وعندما يعتق العبيد ويصيرون أحرارًا كان يطلق عليهم (موالي) وكانوا يعملون بالتجارة نيابة عن أصحابهم.



الحياة الاجتماعية

تميزت الحياة في هذا العصر بالترف والرخاء مثل العصر الطولوني. ولبس الأغنياء الملابس الثمينة وسكنوا القصور الفاخرة وأقاموا المآدب. عاشت الطبقة المتوسطة حياة مستقرة، أما الطبقة العامة فكانت أجورها بسيطة، فكان مرتَّب خادم المسجد، مثلاً، يصل إلى ثلاثة دنانير ونصف فقط طوال العام.

مناصب تظهر لأول مرة في الدولة

الوزير: ظهر منصب الوزارة لأول مرة في مصر منذ الفتح العربى الإسلامي، وتولى المنصب الوزير (أبو الفضل بن جعفر بن الفرات).

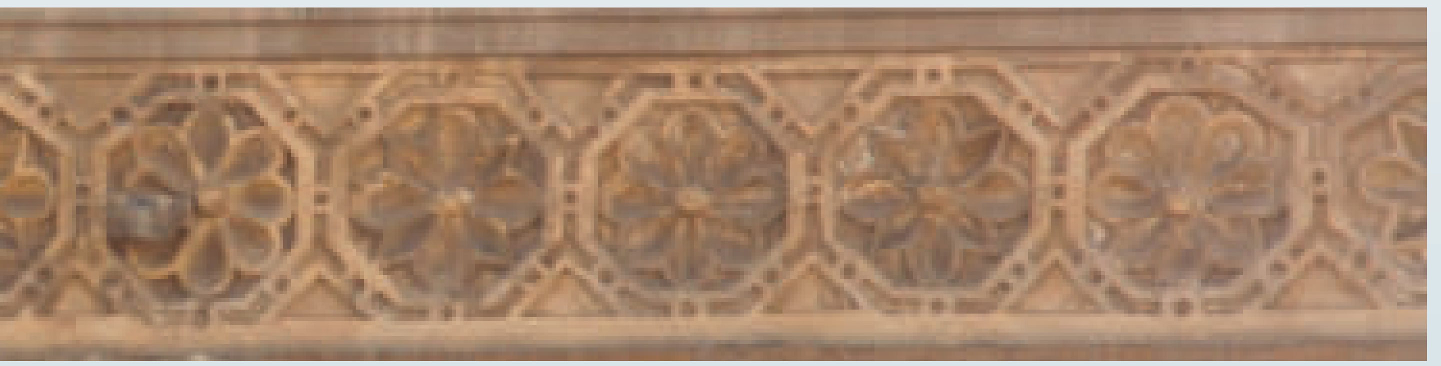
منصب الحاجب: ظهر هذا المنصب لأول مرة وكان يتم تقليده لذوي الكفاءات الممتازة وشغل هذا المنصب (فاتك الرومي).

الناحية المالية

نعمت مصر بالرخاء والثراء، ولكن كان الإخشيد يصادر ويأخذ أموال الناس التي بها شبهة والمشكوك في مصدرها، لينفق منها على الأعمال النافعة وليعطي الفقراء.

العملات

ضربت العملة، وعليها أسماء الإخشيديين واسم الخليفة مستقلين بذلك عن الدولة العباسية.



شريط يُوضح الزخارف التي كانت تُميز هذا العصر

القضاء

كانت مهنة القضاء من الوظائف العظيمة التي تعطي لصاحبها هيبة ونفوذًا. وقد اختار الإخشيديون أعظم العلماء لشغل مناصب القضاء، وأشهر القضاة هو (محمد ابن بدر الصيرفي).

الجيش

كان جيش الإخشيد جيشًا كبيرًا قويًّا ومن جنسيات مختلفة، وهم ترك وسودانيون ومغاربة ومماليك، كما كان هناك أيضًا حرس الإخشيد الخاص ومماليكه الذين بلغ عددهم 8000 مملوك. في عهد أنوجور انقسم الجيش لفرقتين: مماليك الأسرة الإخشيدية، والمماليك الكافورية وهم (مماليك كافور). وقد اعتمد كافور على المال والعطايا الكثيرة للسيطرة على الجيش.

الأسطول

اهتم (محمد بن طغج) بالأسطول ونقل دار الصناعة (936م) من جزيرة الروضة إلى دار (خديجة بنت الفتح بن خاقان) في الفسطاط. وسبب النقل هو أنه بعد دخوله مصر غضب عليه بعض الثوار واشتبكوا مع جيشه وأسطوله واستطاعوا قتل قائد الأسطول و إحراق كل سفن الإخشيد. وقد بنى (محمد بن طغج) أسطولاً جديدًا.

الشرطة

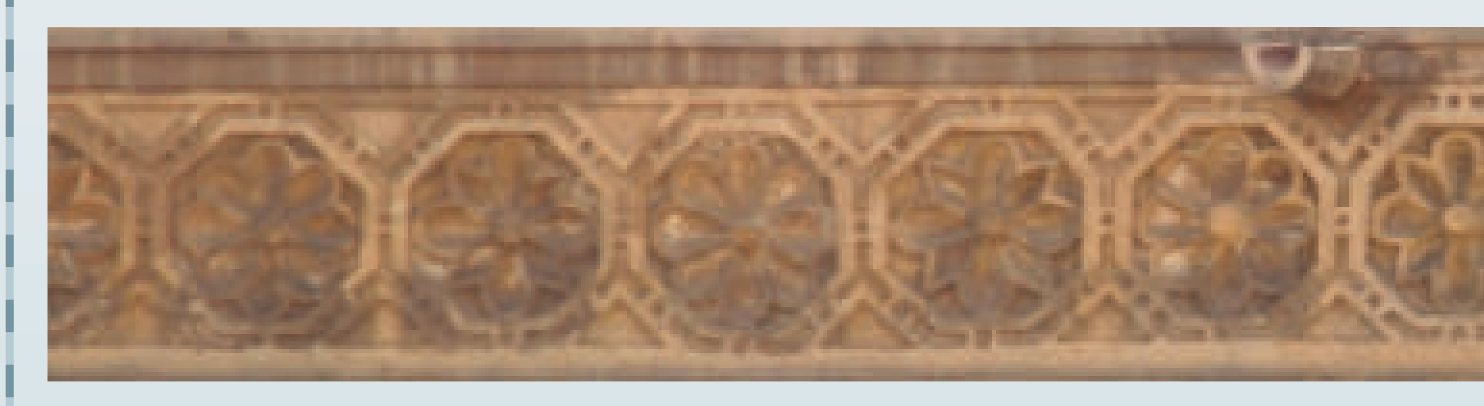
كانت من المناصب الهامة لحفظ الأمن في البلاد، فكان من المهم الاحتفاظ بالاستقرار الداخلي لها في ظل سياسة الاستقلال عن الدولة العباسية.

المحتسب

كانت وظيفة المحتسب –أي المشرف على الأسواق والصحة والآداب العامة– يقوم بها الولاة أو القضاة ولكن استقلت هذه الوظيفة في العصر الإخشيدي. ومن المحتسبين في هذا العصر (محمد بن جعفر بن سلام) وكان محتسبًا ظالمًا.

التجارة

ازدهرت التجارة واستطاع التجار تكوين ثروات طائلة، وكان من أشهر تجار هذا العصر (يعقوب بن كلس) وهو تاجر وفد إلى مصر من سوريا وأقام بالفسطاط وكوَّن ثروة ضخمة، وكان يعرف بلقب (تاجر كافور) لأن كافورًا كان يثق به ثقة كبيرة ويستشيره في كل الأمور الاقتصادية والمالية التي تهمه. وقد ازدهرت تجارة المنسوجات والأقمشة والعطور والعقاقير والأطعمة.





الزراعة

كانت الزراعة هي المصدر الرئيسي لثروة مصر في عصر الدولة الإخشيدية. وقد بنوا الترع وشقوا الجسور وأقاموا المصارف، واعتنوا بالري فازدهرت الزراعة في العصر الإخشيدي. كان المحصول الرئيسي هو القمح. وقد توسعت أنواع المحاصيل الزراعية في مصر في عصر الدولة الإخشيدية، فزرعوا الفول والقلقاس والزيتون وشيدوا الترع والجسور.

الصناعة

تدهورت في هذا العصر صناعة الورق والقراطيس من نبات البردي. وكانت هذه الصناعة مزدهرة في مصر منذ عصر الفراعنة، ولكن نشطت صناعة الأسلحة والسفن الحربية والمنسوجات واستخراج زيت المصابيح من نبات البنجر.
وازدهرت المصنوعات الجلدية والخزفية وصناعة الحلي.

الغناء والموسيقى

كان (كافور الإخشيدي) يحب الاستماع إلى الموسيقى. وتروي قصة أنه مر ذات يوم بحلقة بها سودانيون وهم يضربون الطبل السوداني، فاندمج في الموسيقى ونسي نفسه، وأخذ يحرك كتفيه، ثم تذكر الناس من حوله فتوقف حتى لا يسخروا منه. وظلت حركة كفتيه ملازمة له بعد ذلك.[1]

(1) بدائع الزهور، ص54.



ليلة الغطاس

كان عيد الغطاس من الأعياد المسيحية التي يشارك فيها المسلمون و المسيحيون. وكان (محمد بن طغج الإخشيدي) يقيم في (قصر المختار) الذي بناه في جزيرة الروضة وفى هذا اليوم قام بإشعال ألف شعلة في الجزيرة وفى الفسطاط.[1] وأتى مئات الآلاف من الناس في المراكب وعلى شواطئ النيل ومعهم الطعام و الشراب وارتفعت أصوات الموسيقى في الجو وعمَّت الفرحة و السرور. وكان الناس يغطسون ويسبحون في النيل لاعتقادهم أن السباحة في هذه الليلة تشفي من الأمراض..

منشآت الإخشيديين

لم ينشئ الإخشيديون عاصمة خاصة بهم، بل زودوا العمران في الفسطاط ومدوا ضواحيها.

قصر المختار

شيد الإخشيد قصرًا في جزيرة الروضة (646م) وكان للقصر بستان جميل ودار للحرس والغلمان وخزائن للطعام والملابس والفرش، وقد زال تمامًا اليوم.

مشهد آل طباطبا

بنيت بعض الأضرحة في العهد الإخشيدي. هذا المشهد هو البناء الوحيد المتبقي من العصر الإخشيدي بنته أسرة طباطبا (943م).وهو يتألف من قطعة أرض 30 مترًا طولًا في 20 مترًا عرضًا وفى طرفه الجنوبي قبتان، ويحيط به جدار، ويقع بجوار ضريح (الإمام الشافعي) بالقاهرة.

الميـــدان

أنشأ (محمد بن طغج) ميدانًا، سمي ميدان الإخشيد.

(1) بدائع الزهور، ص53.

البستان الكافوري

بنى (محمد بن طغج الإخشيد) بستانًا عظيمًا شمال الفسطاط، ووضع عليه أبوابًا من حديد وكان يقيم به أيامًا كثيرة واهتم به أشد الاهتمام.

مسجد الفقاعي: شيده (كافور الإخشيدي) في سفح جبل المقطم.

مسجد الجيزة: بناه (كافور الإخشيدي).

مسجد موسى: بناه الوزير (أبو الفضل جعفر بن الفرات) في سفح جبل المقطم.

البيمارستان

بنى الإخشيد البيمارستان، وعرف بالبيمارستان الأسفل لأن مارستان (أحمد بن طولون) كان يطلق عليه المارستان الأعلى.

أشهر العلماء

أبو إسحق المروزي: عالم في الدين.

أبو عمرو الكندي: مؤرخ.

كشاجم: شاعر.

علي عبد الله المعافري: قاضي الإسكندرية.

البالسي: طبيب كافور الإخشيدي.



المذاهب الإسلامية

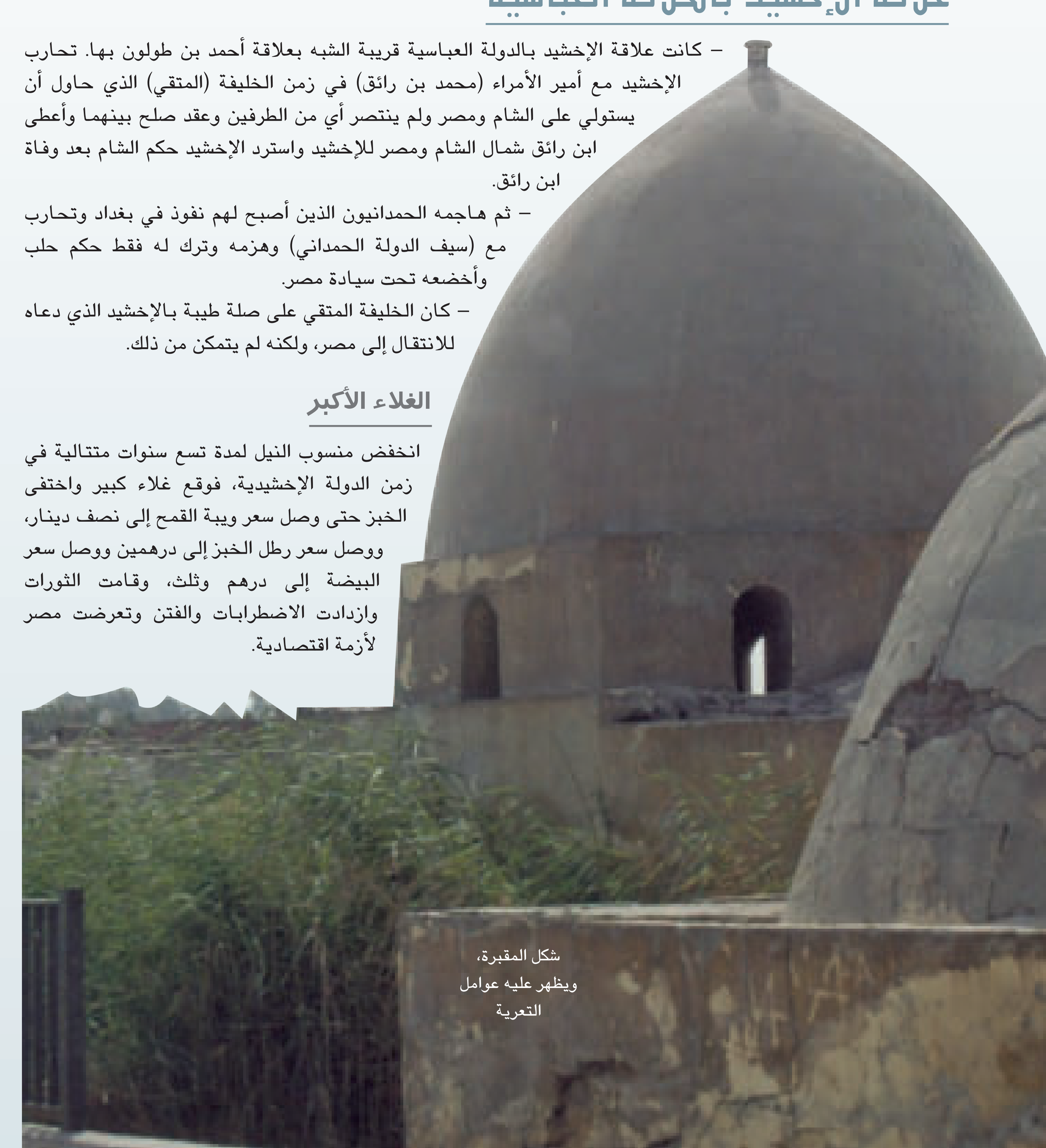
كانت السيادة الكبرى للمذهبين الشافعي والمالكي في مصر.

علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية

- كانت علاقة الإخشيد بالدولة العباسية قريبة الشبه بعلاقة أحمد بن طولون بها. تحارب الإخشيد مع أمير الأمراء (محمد بن رائق) في زمن الخليفة (المتقي) الذي حاول أن يستولي على الشام ومصر ولم ينتصر أي من الطرفين وعقد صلح بينهما وأعطى ابن رائق شمال الشام ومصر للإخشيد واسترد الإخشيد حكم الشام بعد وفاة ابن رائق.
- ثم هاجمه الحمدانيون الذين أصبح لهم نفوذ في بغداد وتحارب مع (سيف الدولة الحمداني) وهزمه وترك له فقط حكم حلب وأخضعه تحت سيادة مصر.
- كان الخليفة المتقي على صلة طيبة بالإخشيد الذي دعاه للانتقال إلى مصر، ولكنه لم يتمكن من ذلك.

الغلاء الأكبر

انخفض منسوب النيل لمدة تسع سنوات متتالية في زمن الدولة الإخشيدية، فوقع غلاء كبير واختفى الخبز حتى وصل سعر ويبة القمح إلى نصف دينار، ووصل سعر رطل الخبز إلى درهمين ووصل سعر البيضة إلى درهم وثلث، وقامت الثورات وازدادت الاضطرابات والفتن وتعرضت مصر لأزمة اقتصادية.



شكل المقبرة، ويظهر عليه عوامل التعرية

حفر سيالة الروضة

جف النيل سنة (950م) في فرع سيالة الروضة، وكان سكان مدينة الفسطاط يذهبون لمسافات طويلة لإحضار الماء، فأمر الإخشيد بحفر فرع للنيل في الروضة، فأراح أهالي الفسطاط ووضع فيها الأسلحة وآلات الحرب وأقام بقصر في جزيرة الروضة هو وعائلته.

عروض الخيل

كانت حلبة السباق تقوم مقام الأعياد لكثرة الزينة، وكان هذا العرض يعد من العجائب. تدخل الخيول حلبة السباق وتزين ويأتي العساكر والغلمان بكامل لباسهم وأسلحتهم وتطلق الخيول للسباق.

العنبر

كان العنبر من أحب العطور في هذا العصر، وكانت كل النساء تمتلك قلادات مملوءة بالعنبر. ولما مات طغج وجدوا عنده 800 رطل من العنبر..

البرك

كانت البرك أي البحيرات الصغيرة تنشأ من مياه الفيضانات ومن أعظم متنزهات القاهرة، ومن الأماكن التي يقضي فيها العامة أجمل الأوقات.

بركة الحبش: تقع جنوب مدينة الفسطاط بين النيل وجبل المقطم وكانت متنزهًا لأهالي مصر.

بركة الفيل: تقع بين مصر والفسطاط وكانت من أجمل المتنزهات للناس.

بركة الأزبكية: تقع بجوار باب اللوق الآن.

يحكى

يُحكى أنه وقع حريق عظيم في مصر، ودخلت النار إلى الأسواق، فبعث كافور مناديًا ينادي بأن من جاء بقربة فيها ماء، فله مائة درهم فجاء الناس بالقرب وأطفئوا النار التي أحرقت 1700 منزل.[1]

(1) بدائع الزهور، ص55.

مقارنة بين الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية

كان بينهما تشابه شديد، حيث انفصلت كل من الدولتين عن الدولة العباسية. ولقد كانت علاقة الدولة الإخشيدية أقوى بالعباسيين.

وساد عصر الدولتين الثراء والغنى والازدهار والإنتاج الكثير، بالإضافة إلى الاهتمام بالعلوم والفنون والآداب والتجارة والصناعة. كان الحكم وراثيًا في الدولتين، وظهر في هذه الفترة منصب الوزارة في الدولة الإخشيدية. ولقد سكت العملات بأسماء حكام الدولتين واتخذت الدولة الطولونية القطائع عاصمة لحكمها، ولم تتخذ الدولة الإخشيدية عاصمة خاصة بها، بل انتشر العمران في الفسطاط. كان من أسباب نهاية الدولتين ضعف الحكام وسوء الأحوال الداخلية والغزو الخارجي. ولا يوجد من آثارهما إلا جامع ابن طولون ومشهد طباطبا. وقد سقطت الدولة الطولونية على يد الدولة العباسية، أما الدولة الإخشيدية فسقطت على يد الفاطميين.

سقوط الدولة الإخشيدية

ظلت هجمات الدولة الفاطمية (فى المغرب) تهدد الدولة الإخشيدية في مصر طوال فترة حكمها. وعندما مات كافور اضطربت أحوال البلاد وامتنع الناس عن دفع الخراج واستاء الجنود من قلة الأموال التي تنفق عليهم. وكان الجو مهيئًا لأن تدخل الدولة الفاطمية مصر، فأرسل (المعز لدين الله الفاطمي) جيشًا بقيادة (جوهر الصقلي) لفتح مصر وهزم جوهر القواد، ودخل الفسطاط (969م) وانتهت الدولة الإخشيدية بعد خمسة وثلاثين عامًا من حكمها في مصر.

المراجع

1. ابن تغري بردي: اختصار وتقديم محمد الفيل، مختصر كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 2007

2. د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية –1999

3. د. جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف –2007

4. جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي: تحقيق: محمد حسين شمس الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية – 2007

5. شحاتة عيسى إبراهيم: القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب –2001

6. د. عبد الحميد حسين حمودة: تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها، الدار الثقافية للنشر –2007م

7. محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة مدبولي –2005

8. موفق الدين أبي العباس الخزرجي، تحقيق د. عامر النجار، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 2000

9. د. نريمان عبد الكريم أحمد، دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب –2007

